

# فاطمة الزهراء عليها السلام

## قدوة الصديقين

«بسم الله الرحمن الرحيم\* إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ \* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ \* إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» صدق الله العليُّ العظيم

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا الأكرم محمد وآله الطيبين الطاهرين .

تتوالى الأيام ، وتتقادم الليالي ، وفاطمة الزهراء عليها السلام قمر يشع ، ولا يبلى بهأوه .. إنها كلمة طيبة ترددها شفاه المؤمنين ، ومنهاج يقتدي به الصالحون .. إنها شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

صحيح إن فاطمة رحلت عن هذه الدنيا إلى عالم الآخرة قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام ، إلا أنها لم تسكن في زاوية من زوايا التاريخ ، ولم ينحصر ذكرها في أسطر مكتوبة في صفحات مطويات ، بل هي حاضرة في ضمائر المؤمنين في كل عصر ومصر ، كما هي حاضرة في ضمائر الأحرار والحرائر من أبناء آدم وبنات حواء . ذلك لأنها نموذج الحق ، وقمة الإيمان ، ورمز تحدي الظلم ومواجهة الطغيان ..

ومن الملفت للنظر ؛ أن المؤمنين عاشوا حياة فاطمة عليها السلام في عقولهم ، في سلوكياتهم ، في عواطفهم ، في طموحاتهم .. دون أن يتأقلوا منها يوماً ، بل لم يمل منها أحد ، وإنما تجد الأرواح تتلهف إليها حبا ، والقلوب تهوي إليها شوقا .. دون أن ينصرفوا عنها إلى غيرها ، لأنهم وجدوا فيها وعندها كل خير ؛ كما الشمس تشرق كل يوم ، والناس لا ينظرون إليها إلا حنانا وعطفا ورغبة ، لأنها مصدر كل خير ومعدن كل عظمة .

هذا الذي جعل الزهراء عليها السلام عنوان كبير لتأليف مئات الكتب من قبل كبار علماء الأمة وأدبائها .. ولم يتوقف قلم التأليف عنها ، بل وهو بذكرها ينعم ، وبمآثرها ومواقفها يفتخر .

وها نحن أيضا نكتب عن فاطمة عليها السلام ، وقد وجدناها معين ثر ، لا ينقص منه شيء مهما غرقت منه .

وقد يقف البعض حائرا أمام شخصية الزهراء عليها السلام ، متسائلا : كيف دخلت فاطمة التاريخ من أوسع أبوابه ، فسجل اسمها على جبين الدهر ، وحفظ حبها في قلوب المؤمنين .. ووقف الزمان لها إجلالا بكل لحظاته وعلى امتداد أيامه ، وهي لم تعيش في هذه الدنيا أكثر من ثمانية عشر سنة وأشهرا ؟ فما أفصره من زمن ، وما أعظمه من بركة . فيا ترى بماذا صارت فاطمة فاطمة ؟

إنها ما نالت هذه العظمة إلا من عظمة الإسلام ، وقد تجلى الإسلام في كلماتها وشخصيتها وسلوكياتها ، حتى أن من يقرأ حياتها يتصور أنه قرأ الإسلام في أفكاره ومعتقداته .. ولم تبخل فاطمة بلحظة من حياتها لتكون في خدمة الإسلام . فمنذ أن فتحت عينيها على الحياة وإذا بها في شعب أبي طالب تعاني مع الرعيل الأول من المسلمين برفقة رسول الله صلى الله عليه وآله وأم المؤمنين خديجة سلام الله عليها من حصار مشركي قريش ، الذي أذاقهم الجوع والعطش ، وأبعدهم عن الناس .. عند ذلك لم تنتظر فاطمة أن تكبر حتى تلتحق بصوف المناصرين للرسول والرسالة ، والمجاهدين في سبيل الله ، وإنما على صغر سنها بادرت بأعمال كبيرة ، مما دعا رسول الله أن يناديها بأب أيها .

ولم ينته دور فاطمة عليها السلام في مكة المكرمة ، وإنما امتد مع هجرتها إلى المدينة المنورة ، حتى آخر لحظة من حياتها الشريفة ، حيث لم تتوان في الدفاع عن إمام زمانها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، وقد

نصرته بكل وجودها حتى استشهدت وهي تحمل معها إلى الآخرة آثار الظلم الذي أصابها ؛ الضلع المكسور ،  
والوجه الملطوم ، والمتن المسود من الضرب ..

وبالرغم من القساوة التي واجهتها الزهراء عليها السلام ، وشدة الظلم الذي تحمّلته .. غير إن هذا لم يعد عليها  
وعلى أبنائها ومواليها .. إلا بالروح الوثابة ضد الظالمين ، والإصرار على مواصلة المسيرة الرسالية في الدفاع  
عن الحق المبين .

وبذلك صارت فاطمة مدرسة عبر التاريخ ، يتعلم منها الناس الشجاعة والشهامة ، والإباء والتحدي ..

وبقيت فاطمة قمراً منيراً لا يأفل ، يستضيء بها كل من يرفض الظلام، ويستهدي بها كل من يرفض الضلال .

ولأجل أن نحصل على شيء من نور فاطمة ، من معارفها ، من أخلاقها .. اقتطفنا بعضاً من محاضرات سماحة  
آية الله السيد محمد تقي المدرسي التي ألقاها في مناسبات عديدة فيما يخص السيدة فاطمة عليها السلام، ووضعناها  
في كتاب تحت عنوان : فاطمة الزهراء قدوة الصديقين. راجين من الله تعالى أن يعم نفعها المؤمنين ، والله من  
وراء القصد .

## القسم الثقافي

في مكتب آية الله السيد محمد تقي المدرسي

/ 5 جماد الثاني 1421 هـ /

هذه هي الزهراء عليها السلام

\* عن الامام الصادق عليه السلام: هي فاطمة الصديقة الكبرى وعلى معرفتها دارت القرون الأولى. (1) ]

\* الامام الحسين عليه السلام: أمي -فاطمة- خير مني. (2) ]

\* الامام الحسن العسكري: وهي -فاطمة- حجة علينا. (3) ]

\* عن علي عليه السلام: دخلت يوماً منزلي فاذا رسول الله صلى الله عليه وآله جالس والحسن عن يمينه،  
والحسين عن يساره، وفاطمة بين يديه، وهو يقول: يا حسن ويا حسين، انتما كفتا الميزان وفاطمة لسانه، ولا  
تعدل الكفتان إلا باللسان، ولا يقوم اللسان إلا على الكفتين أنتما الامامان ولأمكما الشفاعة. (4) ]

\* روي عن مجاهد، أنه قال: خرج النبي صلى الله عليه وآله وهو آخذ بيد فاطمة، فقال: من عرف هذه فقد عرفها،  
ومن لم يعرفها فهي فاطمة بنت محمد، وهي بضعة مني، وهي قلبي وروحي التي بين جنبي، فمن آذاها فقد

آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله. (5) ]

\* قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فاطمة بهجة قلبي، وأبناها ثمرة فؤادي، وبعلمها نور بصري، والائمة  
من ولدها أمناء ربي وحبلة الممدود بينه وبين خلقه، من اعتصم به نجا، ومن تخلف عنه هوى. (6) ]

\* روي عن سعد بن أبي وقاص، أنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: فاطمة بضعة مني، من سرها  
فقد سرنني، ومن ساءها فقد ساءني. فاطمة أعز البرية علي. (7) ]

\* قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن فاطمة ابنتي خير أهل الأرض عنصراً وشرفاً وكرماً. (8) ]

\* قال النبي صلى الله عليه وآله: يا فاطمة؛ ابشري فإن الله تعالى اصطفاك على نساء العالمين، وعلى نساء  
الإسلام وهو خير الدين. (9) ]

\*قال رسول الله صلى الله عليه وآله: فاطمة سيده نساء أهل الجنة. (10 ] )

\*قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنما سميت ابنتي فاطمة، لأن الله فطمها وطم من أحبها من النار. (11 ] )

\*قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا سلمان؛ من أحب فاطمة بنتي فهو في الجنة معي، ومن أبغضها فهو في النار .

يا سلمان: حب فاطمة ينفذ في مائة من المواطنين أيسر ذلك المواطن: الموت والقبر والميزان والمحشر والصراف والمحاسبة، فمن رضيته عنه ابنتي فاطمة رضيته عنه ، ومن رضيته عنه رضي الله عنه، ومن غضبت عليه غضبت عليه، ومن غضبت عليه غضب الله عليه .

يا سلمان؛ ويل لمن يظلمها ويظلم بعلمها أمير المؤمنين علياً، وييل لمن يظلم ذريتها وشيعتها. (12 ] )

\*قال الإمام علي عليه السلام عن فاطمة عليها السلام: فو الله ما أغضبتني ولا أكرهتها على أمر حتى قبضها الله عز وجل، ولا أغضبتني ولا عصت لي أمراً، ولقد كنت أنظر إليها فتتكشف عني الهموم والأحزان. (13 ] )

\*وروي عن عائشة زوجة النبي إنها قالت: ما رأيت أحداً أشبه سمناً ودلاً وهدياً وحديثاً برسول الله صلى الله عليه وسلم في قيامه وقعوده من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالت: وكانت إذا دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قام إليها فقبلها وأجلسها في مجلسه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأجلسته في مجلسها. (14 ] )

\*وروي عن عائشة أيضاً أنها قالت: ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة من فاطمة إلا أن يكون الذي ولدها صلى الله عليه وسلم. (15 ] )

## الزهراء عليها السلام مدرسة متكاملة

جاءت النظرة الإلهية لتتسفر روح الاستعلاء، والسيطرة العنصرية للرجل على المرأة، هذه السيطرة التي ظلت سائدة في مجال التعامل الاجتماعي مع المرأة طيلة قرون عديدة، وهي للأسف مازالت سائدة حتى في المجتمعات الغربية التي تدعي تحرير المرأة، وإعطائها حقوقها .

وكان من نتيجة تلك النظرة العادلة ان ظهرت نساء ارتفعن وسمون الى منازل القدوة في جميع الخصال والصفات الرفيعة السامية، فتراهن مثال الشجاعة والصبر والمقاومة والتحمل حين الإقدام، والمبادرة الى رفض الظلم والتجبر والطغيان.. فإذا بهن قمم شامخة في الشجاعة والجرأة والعلم والتقوى، وكل معالم الفضيلة، والأخلاق الرفيعة، وأفاقها الواسعة .

ولا شك ان فاطمة الزهراء عليها السلام تقف في مقدمة هؤلاء النساء الراضات للظلم والطغيان ، والمعلمات للمرأة دروس الجهاد والمشاركة في تحمل اعباء المسؤولية الرسالية .

والسؤال المهم المطروح في هذا المجال هو : لماذا كان هذا النور الإلهي الذي انبثق من صلب خاتم النبيين والرسول محمد صلى الله عليه وآله، فتجسد في شخصية فاطمة الزهراء عليها السلام، وامتد في حياة ووجود الرسالة، وكان ركناً أساسياً في بقائها واستمرارها الى يومنا هذا ، ولماذا اقتضت ذريته الكريمة صلى الله عليه وآله على هذه الريحانة الطاهرة المباركة ؟

السبب في ذلك دون شك أن فاطمة ، هذه الصديقة الطاهرة ، هي جزء لا يتجزأ من نور الرسالة، ودعامة أساسية من دعومات الإيمان. فالزهراء البتول عليها السلام غدت من خلال سيرتها الطاهرة، وظلامتها التي تنصدر كل ظلام في التاريخ البشري؛ غدت مسيرة رسالية جهادية، وملاك رحمة للعالمين. فهي بذرة الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، وهي جوهر أهل البيت الطاهر الذي شاء الله عز وجل له أن يكون مشكاة لنور

يسطع وهاجاً في ضمير الزمان، وعلى امتداد الدهور. ففاطمة عليها السلام هي أم أبيها قبل أن تكون أما لأحد عشر كوكبا يسطع في سماء الإمامة، وعالم الرسالة .

## منطلق ذرية الرسول

فما هي الحكمة يا ترى- في ان نشاء الإرادة الإلهية أن تكون ذرية الرسول صلى الله عليه وآله منطلقاً من ريحانته الزهراء عليها السلام ؟

أن هذه الحكمة تتضح لنا اذا ما عرفنا أن المرأة التي أصبحت في أحيان كثيرة عرضة للاستضعاف والاستغلال وسلب حريتها وكرامتها، هي أحوج ما تكون الى من تقفدي بها في سلوكها وتصرفاتها في نطاق المجتمع والأسرة، لتكون هذه القدوة هي المدافعة عن حقوقها وكرامتها من الإجحاف والتطاول، ولتبت في النسوة كافة المعنوية العالية، والثقة بالنفس للدفاع عن كرامتهن، والمطالبة بحقوقهن، واستنكار الانحراف والاعوجاج في التعامل الاجتماعي معهن، وخصوصاً فيما يتعلق باستبداد الرجال واستضعافهم لهم .

فلو تعرضت المرأة للظلم الاجتماعي ولم يكن بمقدور أي احد ان يطالب بحقوقها لأسباب قاهرة ، فما الذي تصنعه المرأة في هذه الحالة، وكيف تواجه هذا الظلم والإجحاف، وهل تتخذ موقف السكوت والصمت فتتنازل وتترجع وتستسلم للهزيمة ؟

أن ذلك لا يمكن مادامت هناك فاطمة في التاريخ تتحدى، وتقف في وجه الانحراف والظلم. فهي القدوة التي وقفت تطالب بحقها، لا طمعاً فيه، بل لانه حق يجب أن لا تسكت عنه. وفي نفس الوقت فان مطالبتها هذه هي درس لكل الاجيال، وخصوصاً الشطر النسوي من المجتمع بأن لا يسكتن عن المطالبة بالحق ، وتحقيق العدالة عندما ترتكب المظالم ، وتسحق الكرامات .

فالزهراء عليها السلام نزلت الى الساحة السياسية ودافعت عن حقها الذي كان ينطوي في حقيقته على الدفاع عن الإمامة، والتراث النبوي، وأولوية أهل بيت العصمة عليهم السلام في الإمساك بزمام أمور الأمة .

والمهم في قضية الزهراء عليها السلام تصديها بنفسها للدفاع عن الحق، حيث ان هذا الدفاع يمثل في حد ذاته قيمة إلهية، ولاسيما عندما تنطلق صرخات الاحتجاج والمعارضة من فم امرأة مظلومة كفاطمة .

ومن ذلك كله تتجلى أمامنا الحكمة الإلهية التي اقتضت أن تكون

الصديقة الطاهرة عليها السلام هي العقب الطاهر ، والامتداد الكريم لرسول رب العالمين. فقد شاء الله تبارك وتعالى أن يمنّ على البشرية في آخر عهد من عهود الرسالات الإلهية برجل فوق كل الرجال سمواً وعلواً وأخلاقاً رفيعة، وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله؛ وبامرأة هي سيدة نساء أهل الدنيا والآخرة، ورثت علم النبوة والرسالة من أبيها، فكانت المدافعة عن تراثه صلى الله عليه وآله حتى آخر رمق من حياتها الشريفة .

وهكذا لم يكن من اللهو والعبث أو العاطفة الأبوية المحضة قوله صلى الله عليه وآله: فاطمة؛ أم أبيها ([16])، وحاشاه من ذلك وهو كما قال تعالى « :مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى \* وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى \* عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْفَوْى » (النجم/2-5)، فقله ذلك وقوله الآخر الذي اجمع عليه أهل القبلة كما في موسوعة بحار الأنوار: الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا ([17]) لم يصدرا منه اعتباطاً، بل هما تأكيد على الامتداد والبقاء الرسالي في فاطمة وعلي والذرية الطاهرة من أبناء الحسين عليهم السلام أجمعين .

وهذه الأحاديث وغيرها تعني ان قيم ومفاهيم وتعاليم الإسلام وتشريعاته كادت ان تمحي لولا الجهود التي بذلتها فاطمة الزهراء عليها السلام، ولولا تصديها، وهدير خطبتها التاريخية في نساء الأنصار عندما وضعت النقاط على الحروف ، وأبانت الحقائق لكل ذي لب .

وهكذا فمن أجل أن تدفع المرأة عن نفسها الترددي والابتذال الرخيص اللذين ابتليت بهما في العصر الراهن ، فانها لا بد لها ان تدافع عن نفسها، وتستنكر التيارات الجاهلية التي تستهدف النيل من عقدها وكرامتها ، وذلك من خلال الاقتداء بالزهراء عليها السلام المرشدة والمعلمة الاولى لكل نساء العالم وعلي امتداد التاريخ. فقد علمت هذه

المرأة العظيمة النساء درس العفاف ، وصيانة الشرف والكرامة ، وحذرتهن من الوقوع في شرك الشهوات الرخيصة، وسدّت عليهن عبر سيرتها المباركة أبسط منفذ من الممكن ان يؤدي بهنّ الى الانحطاط والابتذال.. فدعت المرأة الى ان تحفظ كرامتها وعزّتها ، وتصون استقلالها وشخصيتها ، وان لا تترضي لنفسها ان تكون دمية واداة بيد طلاب الشهوات ، وحذرتها من التبرج والتهتك المؤديين الى الانحلال والفساد والانحطاط الأخلاقي .

## حجة الله على النساء

وهكذا فان هذا الامتداد الرسالي الذي تمثله سيدة نساء العالمين عليها السلام، هو مصداق قول النبي صلى الله عليه وآله: فاطمة أم ابنيها ، وبذلك فإنها عنوان المرأة المتكاملة، والقُدوة والمثل الأعلى لكل النساء اللاتي يردن لأنفسهن الشرف والاستقلال والحشمة، وعدم الابتذال والتهتك. ومن ذلك يتضح أن حق فاطمة عليها السلام على النساء هو حق عظيم. فهي الحجة عليهنّ أولاً، قبل ان تكون حجة بالغة على المؤمنين .

وعلى هذا الصعيد نشاهد اليوم بوضوح موجة العودة الى العفاف والتمسك بالحجاب، وفي المقابل نجد أذبال الاستكبار ورواد الفساد والتحلل واتباعهم يحاولون التصدي لهذه الموجة من خلال محاربة الحجاب، وشنّ الحملات الإعلامية الظالمة ضده. ولا غرابة في ان يصدر ذلك منهم، لأن انتشار هذا المدّ المبارك يعني انهزام ركن أساسي من أركانهم التسلطية التي يقومون عليها، وبالتالي فانه سيؤدي إلى دمارهم ونهايتهم .

انهم يشجعون التهتك والفساد بمختلف وسائلهم الدنيئة، بغية إلهاء الشعوب المسلمة، وصرفها عن التفكير في مصائرها، واغفالها عما يجري من نهب لثرواتها، وسحق لكراماتها.. وعلى هذا فان نشر الفساد، والخلاعة، ومظاهر التبرج انما هو هدف سياسي استعماري قديم. ومن هنا يجب على المرأة ان تعي هذه الحقيقة لكي لا تتحول الى وسيلة لتحقيق تلك الأهداف، وبالتالي تكون السبب في نزول الضرر والدمار عليها وعلى أبناء جيلها .

### الحجاب سيف في وجه الطغيان

لقد أصبح الحجاب اليوم سيفاً مشهوراً في وجه الطغيان والفساد ، واذا ما حملته المرأة المسلمة بشكل متواصل فانه يعني الإحباط والهزيمة والزوال للمستكبرين ، وشياطين الإنس المفسدين. فالحجاب يعني بالنسبة الى المرأة الاستقلال الذاتي والعزة والكرامة، وهذه الحقيقة يجب أن تفهمها كل نساء الدنيا .

والحجاب ليس أمراً مفروضاً على إرادة المرأة، بل انه من جملة التشريعات التي تتسجم مع طبيعتها التكوينية التي هي أحوج ما تكون الى الستر والحشمة والعفاف، فهذه الأمور مما تناسب المرأة، وتجعلها تبدو أكثر هبة وعظمة .ومحافظة على المواهب الطبيعية التي وهبها الخالق عزّ وجلّ لها .

فالحجاب هو من باب حفظ المرأة من التهتك والابتذال والخلاعة والميوعة، وهو لا يمكن ان يتعارض مطلقاً مع دورها الاجتماعي، بل انه يزيد من مسؤوليتها في تحمل أعباء هذه الأدوار، لان الحجاب هو بالنسبة الى المرأة شعار الالتزام بالمبادئ ، ورفض الوقوع في فخّ دعوات الابتذال والفجور والخلاعة ، وصرخة احتجاج تطلقها المرأة ازاء أعداء الإسلام الذين يحاولون تجريدتها من مسؤولياتها الرسالية لتنشغل في توافه الأمور وسفاسفها. فالحياء يمثل جزءاً لا يتجزء من الطبيعة التي فطرت عليها المرأة، وجزءاً من كيانها الذاتي. وهذه الحقيقة لا يخالفها إلا الإنسان الجاهل، الذي لا يريد الانصياع لنور الحقائق الواضحة .

وليس ثمة مبالغة إن قلنا إن المرأة المسلمة اليوم وبفضل سيرة الزهراء الطاهرة أصبحت مستعدة لأن تضحي بكل أتعابها وجهودها التي بذلتها خلال دراستها او عملها في سبيل ان تحافظ على كرامتها الإنسانية واستقلالها المتمثل في الحجاب والعفاف والإصرار على العودة الى الذات المصونة ، والفطرة النقية السليمة ، والقيم الإنسانية النبيلة التي رفعت رايها عالياً أم الرسالة الإسلامية، وربّة النجابة والعفاف، وسيدة الطهر، ومعدن التقوى والعلم والهدى والإيمان؛ ألا وهي الراضية المرضية الزهراء البتول التي لا تتسع صفحات الكتب لوصفها لأنها الكوثر، وكلمات الله التي لا تنفد، والقمة والذروة والمثال والمقتدى لجميع النساء في العالم، وخصوصا النساء المسلمات اللاتي يجب أن يتخذن من هذه المرأة العظيمة قدوة لهنّ وهنّ يواجهن، ويتصدّين لأعداء الإسلام

الذين يحاولون حرفهين عن المسيرة التي سارت فيها من قبل الزهراء عليها السلام. وبذلك ستبقى فاطمة الزهراء عليها السلام مدرسة ينهل منها -جيل بعد جيل- كل القيم الرسالية والتعاليم الإسلامية .

## الزهراء عليها السلام تجسيد الرسالة الإلهية

لا بد للمبادئ من ان تتجلى في واقع حي، وعندما هبطت الرسالة الخاتمة على قلب نبينا الأعظم ، إمام الهدى، وقادة الصديقين محمد صلى الله عليه وآله، تجلت هذه الرسالة بعد هذا النبي العظيم في شخصية من الرجال، وأخرى من النساء؛ فتجلت في علي ابن ابي طالب عليه السلام الذي كان المثل الأعلى للقرآن ، وتجسدت كذلك في فاطمة الزهراء عليها السلام .

ان تجلي الرسالة في شخصية الرجل هي عملية يمكن فهمها واستيعابها، لان الرجل يمتلك بحد ذاته قوة الكمال والاستعداد. ولكن عندما تصوغ رسالات الله عز وجل امرأة لتضعها في الذرى العالية، والقمة السامقة، فان هذا لمعجزة دونها كل معجزة .

وهكذا فإذا كان علي بن أبي طالب عليه السلام معجزة رسول الله صلى الله عليه وآله، والدليل الى الإسلام، والهادي الى حقائق القرآن وعلومه.. فان فاطمة الزهراء عليها السلام ستكون الشاهدة الكبرى، والدليل الأعظم. والى هذه الحقيقة يشير الحديث القدسي المروي عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن الله تبارك وتعالى انه قال :

يا احمد لولاك لما خلقت الأفلاك، ولو لا علي لما خلقتك ، ولولا فاطمة لما خلقتكما ([18])

ان امرأة -رغم ما جعل الله في طبيعتها من عوامل الضعف البشري- تتحدى كل هذه العوامل، وتقطع كل صلة لها بالتراب، وتقف من أول الليل وحتى الفجر لتدعو ولكن ليس لنفسها وإنما للآخرين، وتقول لابنها الحسن المجتبي عليه السلام توصيه بالإحسان الى الجيران : يا بني الجار ثم الدار ([19]). هذه المرأة قد وصلت الى مرحلة من السمو والكمال، بحيث إن الله تعالى باهى بها ملائكته ، وأوليائه ، وحملة العرش .

فاطمة عليها السلام مجد الرسالة الإلهية

إن فاطمة عليها السلام هي مجد الرسالة الإلهية، وتجسيد لكل ما في القرآن الكريم من لطائف العبر، ودقائق الفكر، وعظمة الحق.. فلا بد لكل رسالة من ان تقدم نموذجاً، ورسالة الإسلام هي أعظم رسالة، فلا بد أن يكون النموذج الذي تقدمه هذه الرسالة هو النموذج الاعظم، فكانت فاطمة الزهراء عليها السلام التي هي قدوة لكل إنسان؛ ذكراً كان أم أنثى .

وهكذا تسامت هذه المرأة العظيمة نحو معالي القيم والأخلاق، وذابت في الرسالة، وتحولت من مجرد شخص إلى نموذج رسالي .

ان رسول الله صلى الله عليه وآله الذي جاء سراجاً منيراً، وبشيراً هادياً، ورحمة للعالمين.. كان يركز كل تعاليمه، وبرامجه التربوية في ابنته فاطمة عليها السلام، وعلي بن أبي طالب الذي رباه على يديه الكريمتين، وإلا فكيف يمكن ان لا ينجح صلى الله عليه وآله في تربية فاطمة عليها السلام وهو الذي أثر في التاريخ، وصنع أجيالاً من المؤمنين الرساليين يعجز اللسان عن وصف سموهم وطهارتهم ونقايتهم. ولذلك فقد كانت الزهراء عليها السلام مقياساً وميزاناً للعفاف ، ومثلاً لتجلي الأخلاق الحسنة، لأنها خلاصة التربية القرآنية، وعصارة شخصية تمثل القرآن الكريم .

والقرآن الكريم ينقل لنا جانباً من حياة فاطمة وسلوكياتها في سورة كاملة، هي سورة الانسان ، حيث تنثني على فاطمة الزهراء لأنها -وهي ربة العائلة وسيدة البيت - هي التي حملت رغيها في البدء ، ثم جمعت أرغفة أطفالها الصغار وهم صائمون لتعطيها خلال ثلاثة أيام متتالية الى المسكين واليتيم والأسير، متجاوزة بذلك -في سبيل العقيدة- عواطفها وطبيعتها كأم تفضل أطفالها على غيرهم، وضاربة بذلك أروع الأمثلة في الذوبان في الرسالة الإلهية، والاندماج فيها، وتفضيلها على كل العلائق الدنيوية، ولكي تقول للمرأة المسلمة، ان المرأة بإمكانها اذا ما

تربيت في أحضان الرسالة، وعاشت في أجواء القرآن والوحي أن تتحول الى أنموذج في التسامي والتكامل وتحدي غرائز وعوامل الضعف في النفس البشرية .

بمثل هذه المواقف الرائعة جسدت فاطمة الزهراء قيم الرسالة ومبادئ الدين، وبذلك أصبحت حجة بالغة على البشرية جمعاء .

الزهراء عليها السلام خلق عظيم

«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعَٰلَٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَٰلَٰ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ \* ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ \* إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ \* فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» (آل عمران/33-37)

ونحن في رحاب الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء سلام الله عليها، ينبغي أن نتعرف على مدى علاقتنا بسيدتنا الكبرى عليها السلام. بل وكيف نستطيع أن نكون من شيعتها حقيقة وقد فطم الله شيعتها من نار جهنم؟ إذ جاء في حديث شريف: إنما سميت ابنتي فاطمة لأن الله سبحانه وتعالى فطمها وفطم من أحبها من النار (20). فإن لها سلام الله عليها وقفة على باب الجنة، كما في الرواية. فإذا صارت عند باب الجنة تلتفت، فيقول الله: يا بنت حبيبي ما التفاتك وقد أمرت بك إلى جنتي ارجعي فانظري من كان في قلبه حب لك أو لأحد من ذريتك خذي بيده فأدخله الجنة؛ قال ابو جعفر عليه السلام: والله يا جابر إنها ذلك اليوم لتلتقط شيعتها ومحبيها كما يلتقط الطير الحب الجيد من الحب الرديء، فإذا صار شيعتها معها عند باب الجنة يلقي الله في قلوبهم أن يلتفتوا، فإذا التفتوا يقول الله: يا أحبائي ما التفاتكم وقد شفعت فيكم فاطمة بنت حبيبي؟ فيقولون: يا رب أحببنا أن يعرف قدرنا في مثل هذا اليوم، فيقول الله: يا أحبائي ارجعوا وانظروا من أحبكم لحب فاطمة، انظروا من اطعمكم لحب فاطمة، انظروا من كساكم لحب فاطمة، انظروا من سقاكم شربة في حب فاطمة، انظروا من رد عنكم غيبة في حب فاطمة فخذوا بيده وادخلوه الجنة؛ قال أبو جعفر عليه السلام: والله لا يبقى في الناس إلا شاك أو كافر أو منافق. (21)]

وهنا يبرز سؤال مهم، بل وخطير بالنسبة لنا كمؤمنين ومحبين لأهل البيت عليهم السلام، سؤال يرتبط ارتباطاً بمصيرنا وبمستقبلنا، ألا وهو ما المطلوب منا، بل ما الذي ينبغي علينا فعله في هذه الدنيا كي نكتب في الآخرة من شيعه فاطمة الزهراء عليها السلام، ومن الموالين لها؟

## التاريخ واقع يروى والحاضر تاريخ يرى

لعل التمهيد للإجابة عما يرتبط بمستقبل الإنسان يتطلب منا معرفة أمور شتى، منها أن التاريخ هو واقع مضى لكنه اليوم يروى. وأن الحاضر الذي نعيشه إنما هو تاريخ يروى. إذ ليس من شيء في هذا العالم ينقضي أثره، بل هي الصورة التي تتبدل. فما مضى من التاريخ ما زال يتفاعل مع الحاضر، وليس هو الا جذور لهذا الحاضر والمستقبل. ومثل هذه الحقيقة مثل شجرة امتدت أغصانها وفروعها في الفضاء، فهي وان تبدو للعيان كياناً قائماً بذاته، لكنها في الحقيقة ترتبط ارتباطاً وثيقاً حياتياً بما لها من جذور امتدت وتغلغت في أعماق الأرض. كذلك هو الإنسان بكيانه المشاهد للعيان، فأى فرد يعيش الآن إنما يحمل معه حقائق تاريخية وصلت إليه عبر أجداده، وتلك التي تبدو عليه بشكل أو بآخر من خلال أفكاره وتحركاته وتصرفاته أحياناً، بل وحتى في ملامحه الشخصية الظاهرية. فلو تسنى للإنسان أن يرى صورة جده الرابع مثلاً، لا شك أنه سيلحظ فيه ولو بعضاً من ملامحه الخاصة .

ونحن حين نحترم السادة من ذرية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. لأن جذورهم تتصل بشكل ما بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولأن دم الرسول الطاهر ما يزال يجري في عروقهم، ولأن أخلاقه ما زالت موجودة فيهم ولو بنسبة ضئيلة جداً قد لا تتجاوز الواحد من المليون. لذا فما روي في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: احترموا أولادي وذريتي. الصالحون لأنفسهم والطالحون لي يعم كل سيد من ذرية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فمن كان منهم صالحاً يحترم لنسبه ولصلاحه، ومن كان طالحاً منحرفاً يحترم لنسبه لجده .

وحين يقف الإنسان أمام مرقد أحد من ذرية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو لا يعرفه لافتقاده شجرته، أو يقف في أحد أضرحة ذرية الأئمة عليهم السلام ليسلم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويبسط حوائجه في حضرة الباري عز وجل متوسلاً بالرسول وبذريته، إنما يعني ذلك احتراماً للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، في ذريته وعترته وإطاعة لأمره .

ونحن إذ نقندي ونسترشد فإنما نستترشد بالإمام علي عليه السلام فانه وبعد وفاة الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام كان يبكي كثيراً، وحين يسأله عمار عن هذا الجزع، يقول عليه السلام لعمار: كان مشيها مشي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. كذلك كانت حركاتها وصورتها. فهو عليه السلام كان يرى فيها شخص الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فلم يعد يصبر بفقدها .

فالتاريخ إذ يتمثل بالحاضر، وليس الحاضر إلا وليد الماضي وابن للتاريخ، بل الحاضر ليس إلا صورة له، وإنما الفرق أن ذلك حديث يروى وهذا واقع يرى. وانطلاقاً من هذه الزاوية فإننا حين نمحص أنفسنا لنعرف مدى ولاننا لسيدتنا الزهراء عليها السلام، نقف على حقيقة أن موالاتنا لا بد وان تكون بالشكل وبالطريقة التي نجعل من ذلك التاريخ وتلك السيرة العطرة الوضاعة الزكية واقعاً تنبض به الحياة الحاضرة .

## الصديقة قذوة الرجال والنساء

عندما يطلب من المرأة أن تكون قذوة للنساء، إنما يكون باعتبار الجنس وبملاحظة التقارب في السلوكية والتشابه في الخلفة. فنقول على النساء أن يقتدين بالسيدة زينب عليها السلام باعتبارها نموذجاً وقذوة لكافة النساء، ولأنها امرأة والنساء نساء فعليهن أن يقتدين بها ويجعلنها أسوة لهن. لكن القول في الصديقة الكبرى لعله يأخذ صورة أخرى. فهي ليست قذوة للنساء فحسب، بل وقذوة للرجال أيضاً، بل هي قذوة للرجال ومن ثم النساء. ذلك لان الله تعالى خلق نوراً واحداً ثم قسمه ثلاثة أقسام؛ قسم منه هو نور نبينا الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الثاني هو نور الإمام علي عليه السلام والأئمة من ولده، وأما الثالث من الأقسام فهو نور فاطمة الزهراء عليها السلام الذي خلق الله منه السموات والأرض .

وهذا يعني فيما يعني أنها سلام الله عليها كانت في رتبة قريبة من رتبة أبيها سيد البشرية جمعاء رجالاً ونساء. كيف لا وهي بضعة منه، وليس بعدنذ لقائل أن يزعم إنها امرأة فحسب فيختص كونها قذوة للنساء دون الرجال، لأنها شطر وقسم من نفس النور الإلهي. فلا بد للرجل وللمرأة على السواء أن يتخذن منها بخلقها الكريم وسيرتها العطرة الزكية قذوة ومناًراً يهتدي به، ويرسم الإنسان به شخصيته ويحدد معالمها .

كيف نقندي بفاطمة عليها السلام؟

الاعتقاد بولاية أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين إنما يعني فيما يعنيه الاعتقاد بولايتهم في نهجهم وسيرتهم ، بل ويعني موالاتهم في رؤاهم وبصائرهم والتخلق بأخلاقهم واخذ المعارف والعلوم عنهم عليهم السلام. ومن هذا المنطلق يجدر بالإنسان أن يسأل نفسه عن مدى معرفته بتقافة الصديقة الكبرى سلام الله عليها، وعن حدود اطلاعه على معارفها وكلماتها . فقد يتعلل البعض بالافتقار لصحيفتها التي كانت بإملاء جبرائيل عليه السلام، بإملاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكتابة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وإنما ليست موجودة فعلاً بين ظهرانينا بل هي موجودة عند الإمام الحجة سلام الله عليه. الكتاب الذي ضم - كما في أحاديثنا - حتى اصغر الأمور في الشرائع. لكن هذا تعلل مرفوض وعذر مردود، فكلماتها المضيئة مازالت وستبقى تفيض بالحياة وترسم لشيعتها بل وللناس أجمعين مسار الإنسانية القويم من خلال خطبتها التي تلالأت بين خطب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي والإمام الحسين وسيد الساجدين عليهم افضل الصلاة والسلام .

فالصديقة الكبرى المفجوعة بفقد أبيها، تقف والحال هذه أمام رجال خذلوا وغصبوا حقها ولم ينصروها، وترتجل في مسجد أبيها خطبة عصماء ، تلك الخطبة المعروفة بـ الخطبة الفدكية . والتي هي خلاصة للفكر الإسلامي والمعارف الإلهية بما انطوت عليه كلماتها من سلاسة في الأسلوب وعمق في المحتوى، قد يعجز المتخصصون عن كشف مضامينها والوقوف على خصائصها، لما احتوته من بيان فلسفة الخلق وحكمة خلق الإنسان وحكمة الشرائع الإلهية وبيان الواقع الاجتماعي قبل البعثة وأبانها وبعدها .



ولعلنا لا نتجاوز الحقيقة حينما نذكر انه كانت لنا جلسات عديدة سادتها مناقشة واسعة مفتوحة مع العشرات من علماء طهران وخطبائها.. لكننا ومع بذل الساعات العديدة والليالي المديدة لم نستطع ان نفسر الا القليل اليسير الذي لم يتجاوز عُشر خطبة الصديقة سلام الله عليها، تلك الخطبة العصماء التي روتها سيدتنا زينب عليها السلام وعمرها الشريف آنذاك لم يكن يتجاوز السادسة ، ولعله مما يثلج قلوبنا ويقع موقع الاعتزاز والفخر ان نرى اليوم فقيها ومرجعا كبيرا وقد انبرى لكتابة كتاب سماه بـ «فقهاء الزهراء» (22) [استنبط فيه الفروع الفقهية الغزيرة التي تضمنتها كلمات السيدة فاطمة الزهراء سلام الله عليها، فليس بعد هذا وذاك من الإنصاف ولا المروءة بمكان ان يركن من يدعي ولايته للصديقة الكبرى سلام الله عليها إلى إضاعة هذه السويغات الثمينة من حياته وحياة أبنائه بالجلوس أمام التلفاز لمشاهدة قصص خيالية من الصين أو اليابان ، بما فيها من الترهات، مبرراً عزوبه عن هذه الفضائل والحقائق المتمثلة بتعاليم فاطمة الزهراء سلام الله عليها بضعف في حافظته مثلا أو ما شابه ذلك من التبريرات الواهية، بدلا من ان يسعى لتحفيظ أبنائه إياها وان لم يدركوا معانيها وحقايقها لتكون زادهم في الدنيا والآخرة، وتلك هي الخطوة الأولى لمن أراد ان يتمثل بالصديقة عليها السلام .

## من أخلاق الصديقة الكبرى

وصف الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقال عزّ من قائل: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ»، وفاطمة سلام الله عليها نشأت متخلقة بخلق ابيها ذلك الخلق السامي العظيم ، ولعلنا ومهما حاولنا إيفاء جميع جوانب تلك الأخلاق السامية او ان نستوعبها خلال وريقات قليلة نجد أنفسنا قاصرين عاجزين عن إداء كل معانيها ، لذا فان بيان ثلاثة جوانب من ذلك السمو الخلقى ربما يفي بما نحن فيه .

### عبادة فاطمة الزهراء عليها السلام

تجد في صلاتها الخلوص للواحد الأحد، والخشوع والخضوع والاعتراف بالعبودية لله تبارك وتعالى. حيث كانت عليها السلام وكما قال الامام الحسن عليه السلام: رأيت أُمِّي فاطمة عليها السلام قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تنزل راحة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: يا أمه لم لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟ فقالت: يا بني! الجار ثم الدار. (23) [ومن يدري لعلها سلام الله عليها كانت تدعو في جوف الليل والاسحار لشيعتها ومواليها، لانها كانت تجسد معنى الانسانية بخلقها الكريم ، اذ هي سيدتنا وسيدة نساء العالمين وقوة المؤمنات والمؤمنين .

وهذا الخلق المتجسد في صلاتها وتعقيباتها إن هو إلا مثلاً يقتدي به كل موالٍ لها، لان الصلاة سمة المؤمن ومعراجها، بل هي الرابطة بين العبد وربّه، فانه سبحانه وتعالى يقول: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» ويذكره تتجلى النفوس وتسموا وترتفع وتنتهي عن كل فاحشة ومنكر « إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ . »

ثم ان الإنسان العاقل يجد في ذاته القدرة على ان يحدد موقعه في مختلف مناحي حياته ، فهو ولا ريب يمكنه ان يتعرف بذاته على مدى إيمانه من قوة وضعف، ميزانه في ذلك صلاته. فالخلوص والإحساس بالخضوع والخشوع لله جلّ وعلا أثناء الوقوف بين يديه للصلاة علامة للإنسان بان إيمانه بخير، كما ان الاستعداد والتهيؤ للصلاة بقلب ينبض بالحوية والشوق عند سماع المؤذن ينادي حي على الصلاة إن هو إلا دلالة وعلامة يستدل بها ويتعرف على قوة إيمانه ورسوخه في قلبه، والعكس صحيح هنا أيضا، فلا يدل التثاقل والتكاسل عن تلبية نداء الرب، الا على عدم رسوخ الإيمان. كما ان من علامات تزلزل الإيمان وعدم رسوخه، أداؤها باعتبارها واجبا فحسب يتخلص منه الإنسان، فيقف راکعا ساجدا دونما خلوص او خشوع، كصلاة ذلك الإعرابي حين وقف يصلي في المسجد والنبى صلى الله عليه وآله جالس مع أصحابه، فقال متعجبا من صلاة الإعرابي: نقر كنقر الغراب ، لو مات هذا وهذه صلاته لم يكن من امتي (24) . ]

القدرة على اكتشاف مواطن الضعف وبالتالي اصلاحها هي من سمات الإنسان اللبيب، فهو حين يشعر بضعف ما كأن يصيبه دوار في رأسه او ألم في موضع من بدنه، لا شك انه سوف يبحث عن العلاج فيسارع الى الطبيب ليشخص الداء ويصف له الدواء. كذلك الحال حينما يتبين له ان إيمانه لم يترسخ بعد في قلبه، او أنه يعاني من ضعف في الإيمان، لا بد وان يبحث عن مكنن هذا الضعف ومنتشئه بميزان عقله الذي وهبه الله إياه، وان يتفحص موضع المشكلة والخطأ ليشخص موضع الصواب، وبالتالي ل يصلح نفسه. وبتعبير آخر؛ متى أراد الإنسان ان يعرف ميزان الإيمان في قلبه وان يعرف حدود تكامل شخصيته وهل هي قوية صابرة إيمانية ، لا بد له ان ينظر إلى صلاته ، لان الصلاة قربان كل مؤمن، وهذه الوسيلة للنجاة وهذه الرابطة بين العبد وربّه إن هي الا سبع

عشرة ركعة بالضرورة، والصلاة الحقيقية إحدى وخمسون ركعة، منها إحدى عشرة ركعة نافلة الليل، وركعتان نافلة الصبح. وثمانية ركعات نافلة الظهر قبل الفريضة، وثمانية ركعات نافلة العصر قبل الفريضة أيضا وأربع ركعات نافلة المغرب بعد الفريضة، وركعتان من جلوس نافلة العشاء؛ تحسب بركعة من قيام، هذه النوافل مع الفرائض إن هي إلا إحدى وخمسين ركعة هي من علامات المؤمن، بل وبركة لعمره يرتقي الإنسان إلى مراتب السمو والعروج إلى الله تعالى والقرب منه.

وربما يتساءل البعض عن إمكان أداء نافلة الليل قبل الذهاب إلى النوم متعللا بأسباب قد تبدوا من وجهة نظره وجيهة، إذ إن وقت صلاة الليل من بعد صلاة العشاء إلى الفجر، والواقع كذلك، فهناك من لا يستطيع لصلاة الليل لعدة أو أخرى، ولكن الأفضل أن تصلى النافلة بعد منتصف الليل والأفضل أن تصلى في الثلث الأخير منه، وأدائها كذلك ربما يصعب على البعض أو يمنعه الشيطان عن أدائها، لكن الإرادة الإيمانية القوية هي التي تنتشل المؤمن من هذه المعاناة، وليست هي التجربة وتمارين، فالإنسان إذا ما صلى في ليلة ركعتين هدى ثوابها للصديقة الكبرى سلام الله عليها، ومرّ نفسه على ذلك ليالٍ ثم يزيد بها إلى أربع ركعات ومن بعدها إلى ست ركعات ثم ثمان ثم عشرة ثم إحدى عشرة، وبمرور الليالي سينهض في الثلث الأخير من الليل وكأن أحدا يوقظه، بل سيكون في موقع جدير بأن يوكل الله تعالى ملكا خاصا به ينهض للصلاة، وتلك سجية المؤمن بالله تعالى وخلق الموالي للصديقة سلام الله عليها.

ونحن إذ ندعو إلى الصلاة نعلم يقينا أن من ندعوه من أهل الصلاة، لكننا بدعوانا نود أن نؤكد على ضرورة التعمق بالصلاة أولاً، ولأن النوافل تجبر الفرائض ثانياً، ففي حديث للامام الصادق عليه السلام ما معناه أن الإنسان إذا أراد أن تكون صلواته اليومية المفروضة صحيحة لا بد أن يجبرها بالنوافل.

تصدي الصديقة الكبرى لشؤون الأمة

تصدي الصديقة فاطمة الزهراء سلام الله عليها سمة من سمات خلقها العظيم. فلم تكن يوماً ما بمعزل عن أمة أبيها، سيما وهي التي نشأت وترعرعت في بيت الرسالة المحمدية السمحاء التي جاءت لإنقاذ مجتمع خيم عليه ظلام الجهل واستحوذت عليه العصبية القبلية، وليس ادل على ذلك من وقوفها سلام الله عليها إلى جنب الرسالة وحضورها في الساحة ابان البعثة وفيما بعدها في كل قضية وكل موقع وموقف، فقد كانت ومنذ صغرها خير مواسي لأبيها وهو يتعرض لأذى الحاقدين على الرسالة الجديدة، فتراها تمسح جبينه الشريف بيديها الشريقتين الصغيرتين، وبعد رحيله صلى الله عليه وآله ما فتأت تدافع عن الدين وتدافع عن الرسالة والقيم، وكان وقوفها إلى جنب إمامها وقسيمها في النور الإلهي حين أنكر عليه وعليها المنكرون، وجدهما الجاحدون، وراحت تتصدى لشؤون أمة أبيها. ولعل آخر موقف بينها وبين أمير المؤمنين عليه السلام بكاؤها، حيث يقول لها الإمام عليه السلام: يا بنت رسول الله لم بكاؤك؟ فنقول عليها السلام: أبكي لما تلقى أنت يا علي من بعدي. وهذا يعني فيما يعنيه تصديها لشؤون الأمة واهتمامها بمستقبل الإسلام والمسلمين بعد رحيلها لما سيلقاه أمامها عليه السلام من المتاعب والمصاعب.

## ولاية الصديقة لإمامها مطلقة

معرفة ما هو حق والاعتراف والإذعان بهذا الحق من الأخلاق السامية النبيلة التي يتحلى بها الإنسان، وفاطمة عليها السلام أولى بهذه السمة وهذا الخلق الرفيع، لأنها نشأت على الحق.

فهي أول من كان على حق ومع الحق، وأول من كان ينتفض على الباطل. ومن هنا كانت ولايتها للإمام أمير المؤمنين عليه السلام مطلقة لا تشوبها شائبة، ثم إن مقام الصديقة الكبرى سلام الله عليها هو مقام الكفاء للإمام علي عليه السلام، ولولا علي لما وجد كفاء لها. وهي سلام الله عليها شطر النور الذي قسمه الله تبارك وتعالى على نبيه ووصيه والأئمة من ولده وعلى فاطمة الزهراء صلوات الله عليهم أجمعين، ومع ذلك كله ومع هذه المرتبة السامية للصديقة سلام الله عليها كانت موالية وولاية مطلقة لأمير المؤمنين عليه السلام، فهي حينما تعود من إلقاء خطبتها تستحث الإمام لطلب حقها من الغاصبين، فيقول لها: احتسبي الله- وما يكون منها سلام الله عليها إلا ان - قالت: حسبي الله، وأمسكت. ([25]) ولم تنبس ببنت شفة بعدئذ. فهي بذلك جسدت موقفاً جليلاً بحد ذاته عظيماً في معناه ومحتواه، فلقد جسدت معنى الطاعة والخضوع لإمامها وأظهرت معنى الولاية، وهي ابنة سيد الخلائق أجمعين، ذلك الخضوع والتسليم للإمام الذي رافقها حتى بعد وفاتها سلام الله عليها، وبعد ما وضعت في قبرها الشريف ودفنت حيث سألوها عن إمامها فقالت: إمامي هذا الجالس على القبر. وتلك هي سمات علو المرتبة

وصفات المؤمن التي ينبغي ان يتصف بها ويتحلى بها كل موالى للصديقة الكبرى سلام الله عليها، وتلك هي الأخلاق السامية التي لا بد ان تتمثلها في حياتنا، وحينها تقوى أواصرنا وتتوثق علاقتنا بسيدتنا الزهراء سلام الله عليها، فننال شفاعتها يوم القيامة «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ \* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ». بقلب خالص يحب أهل البيت ومتخلق بأخلاقهم صلوات الله عليهم أجمعين .

## عظمة فاطمة عليها السلام

القرآن الكريم يحدثنا عن مريم ابنة عمران عليها السلام وهي ما زالت موجودة في بطن أمها، وذلك قبل ما يقارب الألفي عام ، والله سبحانه وتعالى انما ذكر قصة مريم لأنها قصة حياة مازالت تحيا في الأمة الإسلامية مفسرة بفاطمة الزهراء سلام الله عليها، واختيار الله الواحد الأحد لمريم وتقبله إياها وهي في بطن أمها، حيث يقول القرآن الكريم: « فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ » وكان ذلك عندما دعت أمها وقالت : « وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَدُرَيْتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ \* فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » حينما جعلت ام مريم ما في بطنها محرراً لله تعالى، فتقبلها واصطفها وهي صغيرة ، وكان ذلك قبل قرون مديدة من بزوغ نور الإسلام .

والاية الكريمة وردت تفسيرها في مريم عليها السلام، وتأويلها وحقيقتها وجوهرها وعمقها في سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء سلام الله عليها، جعلنا الله من شيعتها ومواليها وأنالنا شفاعتها يوم الدين، سائلين ان يقيض لنا ابنها الإمام الحجة المنتظر سلام الله عليه لئلا نثار لها ويأخذ بظلامتها ويعرف الناس بعض حقها .

## الزهراء عليها السلام نموذج الفضائل

«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ \* ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ \* إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَدُرَيْتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ \* فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (آل عمران/33-37 )

في ذلك اليوم ؛ حيث كان الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد جمع حوله علياً وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم أجمعين، كان النبي إذ ذلك يملؤه الفرح والسرور وتبدو على وجهه ابتسامة الرضا والبهجة ، حيث كان يتنقل بنظره بين أفراد أسرته النبوية الشريفة .

قالت أم أيمن: ثمَّ نظر إلى علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام نظراً عرفنا فيه السرور في وجهه، ثم رمق بطرفه نحو السماء ملياً ثم وجهه نحو القبلة وبسط يديه ودعا، ثم خر ساجداً وهو ينشج فأطال النشوج وعلا نحيبه ، وجرت دموعه ثم رفع رأسه وأطرق إلى الأرض ودموعه تقطر كأنها صوب المطر . فحزنت فاطمة وعلي والحسن والحسين وحزنت معهم لما رأينا من رسول الله صلى الله عليه وآله وهبناه أن نسأله حتى إذا طال ذلك، قال له علي وقالت له فاطمة: ما يبكيك يا رسول الله لا أبكي الله عينيك، فقد أفرح قلوبنا ما نرى من حالك؟

فقال: يا أخي سررت بكم سروراً ما سررت مثله قط وإني لأنظر إليكم وأحمد الله على نعمته عليّ فيكم، إذ هبط عليّ جبرائيل فقال يا محمد إن الله تبارك وتعالى اطلع على ما في نفسك وعرف سرورك بأخيك وابنتك وسبطيك، فأكمل لك النعمة، وهناك العطية بأن جعلهم وذرياتهم ومحبيهم وشيعتهم معك في الجنة لا يفرق بينك وبينهم يحبون كما تحبني، ويعطون كما تعطيني، حتى ترضى وفوق الرضا، على بلوى كثيرة تنالهم في الدنيا، ومكاره تصيبهم بأيدي أناس ينتحلون مثلك ويزعمون أنهم من أمتك براء من الله ومنك خبطاً خبطاً وقتلاً قتلاً شتى مصارعهم، نائية قبورهم خيرة من الله لهم، وانك فيهم ، فاحمد الله جل وعز على خيرته وارض بقضائه، فحمدت الله ورضيت بقضائه بما اختاره لكم ([26]) .

- بعدئذ أخذ الأمين جبرائيل يقصّ عليّ وإذ ذاك تحول اجتماع الفرح الى عزاء شارك فيه أفراد البيت النبوي
  - ما سيحدث عليكم من بعدي يا عليّ عزاء شارك فيه أفراد البيت النبوي عزاء شارك فيه أفراد البيت النبوي
- الكريم بأجمعهم .

ولكن لنا ان نتساءل -إزاء هذه الرواية وما تلتها من وقائع مأساوية مؤكدة لها- عن ان النبي الاكرم الذي هو سيد خلق الله ومحور خليقته وحكمتها الربانية، ألم يكن له الحقّ في ان يتمتع- ولو للحظات- برؤية آل بيته الكرام في ظلّ اجواء من السرور ليتساوى مع ما يتمتع به أرباب العوائل الاخرى؟ وما هي الحكمة في أنّ هذا البيت النبوي ، وهو الذي قال عنه تعالى «: في بُيُوتِ الَّذِينَ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ » ان يكون محطة للمصائب والمحن والملمات؟ ثمّ إننا إذا طالعنا سيرة سيّد الانبياء والمرسلين، فلما لحظنا ساعة راحة او فرحة، بدءاً بولادته فترعرعه يتيماً ثم فقده لجده عبد المطلب وحاميه أبي طالب، ثم الاذى الذي تعرّض له في مطلع البعثة والحصار الرهيب في شعب ابي طالب، ومن ثم تشكيل الدولة الإسلامية في المدينة المنورة وحوادث ووقائع اثنتين وثمانين معركة وغزوة وسرية؟ فما هي الحكمة التي تقف وراء كل تلك الآلام؟

يبدو ان الحكمة من كل ذلك ان الله تبارك وتعالى حينما خلق الناس، اراد لهم ان يهتدوا الى رحمته في الدنيا قبل الآخرة، وفي الآخرة بعد الدنيا، ولكي يصل هؤلاء الى الرحمة الإلهية فهم بحاجة الى قذوات صالحة تضيء لهم الطريق المظلم، وتعلمهم كيف يتجاوزون المصاعب ويرفعون العقبات. ولكنّ تلكم القذوات لم تخلق للدنيا، وإنما خلقت للآخرة ؛ مثلها مثل الشمعة التي تحترق لتضيء ما حولها. فتلك القذوات طرقت الله وآياته للخلق منذ اليوم الاول للميثاق الاول، ثم الميثاق الثاني في عالم الذر، حيث شرط الله عليهم الزهد في الدنيا ، فلما شرطوا له ذلك وعلم بأنهم سيفون بهذا الشرط أعطاهم الولاية .

إنّ النخبة المصطفاة تختلف عن سائر البشر، من حيث ان امتحان الناس يختص في دار الدنيا، وإذا ما أراد أحدهم التقدم في طريق المجد، فلا بدّ له من السعي والاجتهاد لإثبات جدارته. ولكنّ انبياء الله والأئمة المعصومين عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه لم يبعثوا ليمتحنوا في هذه الدنيا، وذلك لأنّ الله كان قد امتحنهم في عالم آخر. ولأنّهم قد امتحنهم من قبل، فقد بعثهم الواحد تلو الآخر، حتى انك لترى أحدهم قد بعث في المهدي صبيّاً وأوتي العلم والحكم، ولم تكن أمامه ثمة فرصة للإعداد والاستعداد ..

والآية الأوضح في قضية كون الانبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام يختلفون عن سائر البشر، هي أنّ مهمة النبوة او خلافة الانبياء - كما في أئمة اهل البيت- تخلو عن إثبات الجدارة في الدنيا والخروج منها بنجاح . فالمسألة منتفية أساساً ، تبعاً لما تقدم في هذا المقام .

اما الفكرة القائلة بأن الانبياء كسائر البشر او أنّ الأئمة كسائر الافراد وان عليهم ان يجربوا ويمتحنوا ، فهي فكرة ضلالة ، مخالفة لآيات القرآن الكريم، ومخالفة لحكمة الخلق. فإله سبحانه وتعالى لم يخلق الشمس مرة ثم أمرها ان تلهب نفسها، أو ان تتعلم كيف تصيح شمساً ، بل الله خلق الشمس شمساً، وجعل القمر قمراً، وذلك لحكمة هو ادري بها .

كذلك الله خلق الرسل رسلاً وجعلهم افضل خلقه منذ اليوم الاول. والآيات القرآنية الكريمة التي ذكرناها في بداية الموضوع تبين وتصرّح بهذه الحقيقة، حيث تقول: « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعَٰلَٰٓئِبْرَاهِيمَ وَعَٰلَٰٓعِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ » وعملية الاصطفاء هذه شملت الذرية التي بعضها من بعض، وفي روايات اهل البيت عليهم السلام فسرت عبارة آل ابراهيم بـ آل محمد ، و آل عمران بـ آل علي . وعملية الاصطفاء قد تمت منذ اليوم الاول. وعليه؛ فلا يجوز لأحد ان ينكر ذلك او يستنكره او يتعجب له، والا لكان عليه التعجب لشرف الرأس على الرجل، او العين على اليد، او العقل على الحواس .. فهذه قضايا تتعلق بإرادة الله في خلقه. وما يكفيننا معرفته، هو ان الله عزّ وجلّ كان يعلم بأن الذين اصطفاهم او سيصطفاهم سيفون بعهد الله ويؤتون وظائفهم على الوجه المطلوب، وأن غير المصطفين ليس بإمكانهم الوفاء ما لم يمتحنوا او يمحسوا في الدنيا بأنواع التمحيص .

والأئمة المعصومون وفاطمة الزهراء سلام الله عليهم، حينما خلقوا أئمة وجعلوا أنواراً محدقين بعرش الرحمن، حتى من الله على البشرية بهم فأنزلهم، حينما فعل ذلك شرط عليهم الزهد في الدنيا، لأنهم ليسوا من هذه الدنيا ولا لها .

وفاطمة الزهراء عليها السلام منذ أن كانت في بطن امها- كما هي مريم- تحررت ؛ أي تحررت من القيود والأمور الدنيوية. ومريم التي صيغت شخصيتها وصيغ وجودها منذ كانت في رحم امها وكانت سيدة نساء عالمها، كذلك هي فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين .

فهل يمكننا تصور ان الله سبحانه لم يفعل بفاطمة الزهراء ما فعله بالصديقة مريم؟ عقلاً لا يمكن تصور ذلك بوجه من الوجوه، فالروايات الموثقة توضح وتشير الى وجه التشابه هذا، بل وتفضل مقام الصديقة الزهراء على غيرها من النساء على مر التاريخ الإنساني عموماً .

أما الحديث الخاص بشأن فاطمة الزهراء عليها الصلاة والسلام، فيمكن التقديم له بالقول؛ بأن هناك ثلاث فترات او لحظات لها اهمية قصوى في حياة الانسان ووجوده، وهي: لحظة الولادة ، ولحظة الوفاة، ولحظة البعث .

فكل إنسان لابد ان يتمتع بولادة هادئة وسليمة. ولكن كيف ولدت الزهراء؟ إنها ولدت مظلومة، بل هي ظلمت حتى قبل ولادتها، وذلك حين هجرت نساء قريش أمها خديجة الكبرى عليها السلام بداعي إسلامها ونصرتها لزوجها رسول الله، فظلت وحيدة تحدثها ابنتها الزهراء من رحمها وتسليها. فإذا كانت فاطمة أم ابياها باعتبارها كانت تهدي عليه مصائبه وآلامه في مكة حين البعثة، او في المدينة جزاء الحروب والمعارك، فترى كم كان عمرها حينئذ لتقوم بهذه المهام الجسيمة؟

وقد يتساءل البعض عن العلاقة بين واقع الذرية الطيبة المصطفاة، وواقع المأساة والشظف في العيش؟

والجواب: هو انّ حكمة الله اقتضت أن تكون الزهراء رمز الفضيلة في المجتمع الجاهلي الذي كان يكيل للمرأة انواع الظلم والكبت والقهر؛ الظلم الذي كان يعبر عن فلسفة الحياة الجاهلية وانتكاسته الفكرية آنذاك ، فإذا قرأت الشعر والقصص الجاهلية تجد صفحات الافتخار والتشرف بظلم المرأة وأودها، حتى جاء في الرواية أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبّل الحسن والحسين عليهم السلام فقال الأقرع بن حابس: أن لي عشرة من الأولاد ما قبّلت واحداً منهم -كأنه يتفاخر بذلك- فقال صلى الله عليه وآله: ما عليّ إن نزع الله الرحمة منك. (27) ]

انّ ظلم المرأة اصبح قاعدة اساسية لدى العرب في ذلك اليوم، فكان ان خلق الله سبحانه فاطمة الزهراء لتكون النموذج الأعلى للأخلاق والفضيلة، حتى قال عنها النبي: ولو كان الحُسن شخصاً لكان فاطمة، بل هي أعظم، ان فاطمة ابنتي خير أهل الأرض عنصراً وشرافاً وكرماً . (28) ]

فالكمال الإنساني تجسد بصورة مباشرة في وجود الزهراء، وعيرها تمكن الرسول الاكرم هدم قلعة الظلم وتغيير القلوب الفظة القاسية .

لقد أصبحت الزهراء قدوة أبدية في إطار تحطيم الصنمية والعنصرية الجنسية، وهي النموذج الأعلى للمرأة، كيلا تصبح موجوداً مقهوراً. أما المرأة التي تقهر في البيت وهي بنت او اخت او زوجة او أم، فإنها تعجز عن انجاب او تربية رجال افاض، بل ينبغي توقع ان يكونوا محطمين مقهورين. وعليه فإنك إذا اردت تربية مجتمع شجاع مجاهد متحد للظلم مقاوم للجريمة، فلا بد ان تربي المرأة والزوجة على هذه الصفات، وتجعل منها كائناً حياً مؤثراً .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكن المزيد من الاحترام والتعظيم لابنته الزهراء ، لانه كان يعرف جدارتها التامة في التربية وانجاب الرجال الافذاد في مدرسة أهل البيت، التي حفظت الإسلام على اسنى وجه .

ولطالما قبّل النبي يد ابنته، وكذلك كان عليّ زوجها يفعل، ولطالما كان علي لا يوليها ظهره إذا اراد مغادرتها .

ففاطمة الصديقة حجة الله في زمانها وحجته في كل زمان، وهذه هي فلسفة قول الرسول الكريم: وأما ابنتي فاطمة سيدة نساء العالمين (29) ] .

وإن قال قائل بأن الزهراء كانت إنساناً معصوماً ، وهذا ما قد يفصل بينها وبين البشر العاديين، فإنني أجيبه بوضوح بأن وظيفة المسلمين تجاه الزهراء الأخذ من نورها ما يستطيعون استيعابه. فليس لهذا القائل أن يدعي بأنه لا يستضيء بنور الشمس ، لأن كتلة الشمس محرقة ...

ثم إن المرأة المسلمة إذا طالعت سيرة الزهراء وتبينت لها شخصيتها من خلال تدبر معاني الآيات والروايات، ستجد نفسها ملزمة بالصعود الى مقام شخصيتها الحقيقية، وكذلك ستجد نفسها ملزمة بأداء وظائفها الشرعية الحقيقية ، من امر بمعروف أو نهي عن منكر او دفع زوجها وأولادها نحو ان يكونوا شخصيات اجتماعية فذة .

وفاطمة الزهراء سلام الله عليها حجة على الرجال ايضاً؛ فالزهراء التي قاومت أعتى الدكتاتوريات في زمانها، ودافعت عن حقوقها وحقوق زوجها وحقوق الاسلام عموماً.. حجة على الرجال الذين ينهارون ويتنازلون عن شخصياتهم وحقوقهم .

إذا ؛ فراية الزهراء هي راية الدفاع عن المظلوم ومقاومة الظلم في كل زمان ومكان .

إن الزهراء التي خلقها الله امرأة كانت حجة على الأئمة انفسهم، حتى ان الامام الحجة ارواحنا فداه قال لشيعته: ولولا ما عندنا من محبة صلاحكم ورحمتكم والانشقاق عليكم لكننا عن مخاطبتكم في شغل، مما قد امتحنا من منازعة الظالم العتل، الضال المتاع في غيه، المضاد لربه، المدعي ما ليس له، الجاحد حق من افترض الله طاعته، الظالم الغاصب. وفي ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لي أسوة حسنة، وسيردي الجاهل رداء عمله، وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار . (J) 30J)

فهي كانت امرأة، ولكنها في الوقت نفسه كانت شرفاً للرجال وشرفاً للمجاهدين وقدوة للصديقين وحجة الله على الأئمة المعصومين. وهذا كله يمثل الحكمة من خلقها ووجودها؛ الوجود الذي امتلأ بالمأساة منذ اللحظة الاولى لولادتها، وحتى آخر لحظة من حياتها، بل إنها في القيامة ستدافع عن حقوقها وحقوق شيعتها أمام محكمة العدل الالهي، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

## الزهراء عليها السلام وتر لا يعمد

«وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ \* اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ الرَّجَاةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ \* فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ \* رَجُلًا لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ \* لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (النور/34-38 )

لم يكن خلق الإنسان عبثاً، فحاشى الله الحكيم العليم. كذلك السماوات والأرض هي الأخرى ما صنعت لهواً ولا عبثاً، بل خلقت مرتبطة بمصير الإنسان وحياته على هذا الكوكب البسيط. لذا لما كانت لهذا الخلق وهذه الصنعة والحياة هدفية، فكان لا بد للنظم من أن يوكل إلى الإنسان حين الخلق، ولم يكن هذا أن يكال إكراهاً، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى جعل الاختيار والحرية للإنسان في اتخاذ مسالكه ومناهلها، وفي ذات الوقت بين له -إلى جانب ذلك -سبيل الهدى والرشاد والصلاح عن طريق الآيات الإلهية والرسل والأنبياء .

وفيما يخص بحثنا هذا، نشير إلى أن واحدة من تلك النظم نظام الأسرة، كأحد أهم نظم الاجتماع؛ الأسرة التي تجسد اللبنة الأولى والركيزة الأساسية في هيكل البناء الاجتماعي للإنسان، حيث يشمخ هذا البناء برصانة بالغة إذا ما كانت نواته وخليته الأسرية تشدها أواصر المحبة، وقائمة على أسس التعاون والإخلاص والتنسيق وتبادل العمل وروح النشاط والمثابرة .

فلقد أراد الله تبارك وتعالى أن يكون الصرح الاجتماعي الفاضل مقاماً على أساس الأسرة الذي هندسته وخطته الرسالة الإسلامية الرشيدة، ومن مجموع الأسر المتينة المتماسكة يكون ويتألف البناء الأسري الرصين، وتتكامل مناحي الحياة الطبيعية بأنسياب نحو تحقيق الكمال وعبادة الكامل المطلق .

ولعل أبرز وأعظم ما خطط له الإسلام العظيم وأمر بامتثاله هو التنظيم الأسري القائم والمنطلق من أعماق الفطرة الإنسانية؛ أي تلك المجموعة من السنن والقوانين والأنظمة الإلهية والغرائز المهدّبة الموجّهة بالنحو الإيجابي والسليم، التي أودعها الله سبحانه في ذات الإنسان، سواء كان ذكراً أم أنثى .

ولو أمعنا النظر وتدبّرنا في مصدر الرقي والتقدم الحضاري لرأينا ذلك كله ينطلق من التنظيم الأسري المتماسك. فالأسرة هي التي تحمل هوية المجتمع وسمات الأمة. ولو مثلناها بشكلٍ هرميٍّ لوجدنا أن الأب يمثل القمة، باعتباره المسؤول عن رعاية وحماية الزوجة - الأم - الركيزة الثانية للأسرة كمسؤولة عن رعاية وحماية وتربية الأولاد، فالرجل موظف بمعاملة المرأة بلطف ورقة، وهو مسؤول عن الإنفاق عليها والوفاء بحقوقها، حيث أن الرجل الأب يحتل موقع القيادة والقيومة التي جاءت في قوله تعالى: « الرَّجَالُ قَوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ »، وهذه القيومة ليست أمراً مفروضاً أو دخيلاً، بل إنها تجسيد للفطرة والغريزة المنسجمة وطبيعة التكوين الأسري، حيث تبعث على الرضا والطمأنينة والسكينة بين أعضاء الخلية الاجتماعية الأولى .

إن هذه القيومة هي التي تثير الإحساس وتدفع بالرجل إلى التضحية بأعز ساعات نموه وراحته، وإلى النهوض وظلمة الليل لا تزال تخيم على الأفق، فتراه يخرج في البرد القارص وربما أثناء هطول المطر والثلج، طلباً للرزق ولقمة العيش، في كد وكدح وبذل الجهد طيلة ساعات النهار، وهذا كله انطلاقاً من الشعور بالمسؤولية تجاه عائلته، فهو المحكوم أولاً وأخيراً بتوفير الرزق والأمن، وهما العاملان الأساسيان في مصداقية الحياة للأسرة ..

وهذه الفطرة والسنة الإلهية لا تجدها مقتصرة على ابن آدم، بل هي تعم معظم الكائنات الحيّة.. فالأمومة والأبوة تلحظها في سيرة جميع الحيوانات ولو لمدة زمنية محدودة. فانه سبحانه وتعالى قد ألهم الكائنات فطرة من شأنها تنظيم واقع وشؤون الأسرة، ولا يمكن بحال من الأحوال إلغاء هذا الإلهام السماوي والاستعاضة عنه بنحو آخر ببساطة، إذ الأمر ليس هيناً كما يتصور البعض، فالتغيير والتبديل القهري المناقض لفطرة الإنسان وطبيعته الغريزية يكلف فرضه الكثير من الخسائر، حيث تكون على حساب كرامة الإنسان وحرية. بل ويخرجه من عالم الأدمية إلى دنيا أخط وأردأ من الحيوانية .

## بين القيومة والاستبداد

حينما سنّت القيومة للرجل على المرأة وكيان الأسرة عموماً، برز إلى جانب ذلك الفهم السلبي المتجسّد بالاستبداد، حيث يفرض الرجل -علناً أو خُفية- آراءه وأحكامه الصارمة الظالمة على أعضاء أسرته .

فاليونانيون القدماء اعتبروا المرأة مجرد آلة يستخدمها الرجل .

والهند لم يتصوروا المرأة إلا جزءاً حقيراً من الرجل؛ ينبغي القضاء عليه فور وفاة الرجل .

والعرب قبل الإسلام اعتبروا الأنثى عاراً لا يلد من دفنه ولمّا يرى نور الحياة بعد، تبعاً للجهل والعواطف البليدة وضنك العيش وعدم الإيمان بالخالق الذي تكفل بإيصال الرزق إلى مخلوقه .

ومقابل هذه الرؤى الضيقة الفاسدة والصناعة الفلسفية الفاشلة وغيرها من التشريعات، جاءت النظرة الإلهية والحكمة الربانية لتتسلف روح الاستعلاء والسيطرة العنصرية، فاقتضت تلك الحكمة الحقّ أن تبرز بين فترة وأخرى فتيات ونساء يرتفعن ويسمون إلى منازل القدوة والنموذج الطيّب في شتى الخصال الرفيعة، فتراهن مثال الشجاعة والصبر والمقاومة .

نماذج المرأة الصالحة

وإذا ما أشرنا إليهن فبدأنا من عمق التاريخ والعصور الغابرة، فإن آسيا بنت مزاحم ثم مريم بنت عمران وأم المؤمنين خديجة الكبرى سلام الله عليهن، ثم سيدهن وقودتهن جميعاً الطاهرة البتول والراضية المرضية فاطمة الزهراء سلام الله وصلواته عليهن .

فترى لماذا كان هذا النور الإلهي الذي انبثق من صلب خاتم النبيين صلى الله عليه وآله فتجسد بشخص فاطمة الزهراء عليها السلام، وامتد في حياة ووجود الرسالة، وكان ركناً أساسياً في بقائها إلى يومنا هذا؟ ولماذا كان

عقب وذرية الرسول الأكرم المباركة قد اقتصر على ريحانته الصديقة الطاهرة المطهرة الزهراء سلام الله عليها، ولم يكن في أحد أبنائه؟

إن الزهراء البتول وُلدت كبرعم تفتّح في ربيع الحياة، أو كنسمة فوّاحة انسابت على سهل الحياة، أو كسحابة خير هطلت فاهترّت لها صحراء الوجود، أو كومضة سطعت على آفاق العالم المظلم، ذلك لأن الزهراء جزء لا يتجزأ من نور الرسالة، وركن أساسي من الإيمان، حيث عاشت صلوات الله عليها كربيع عجل انقضاؤه قبض الحقد اللثيم، لكنها - رغم ذلك - بقيت عطراً ممتداً وبركة لا تنقطع، فهي بذرة الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وهي جوهر أهل البيت الطاهر الذي شاء الله له أن يكون مشكاة لنور يسطع وهاجاً في ضمير الزمن وعلى امتداد الدهور .

وهذه الحكمة هي التي كانت وراء أن تكون الزهراء القدوة الأولى لنساء العالم ليقمن بوجه الاستبداد والظلم وسلب الحقوق والإجحاف والتطاول الذي يتعرضن له من قبل الظالمين والمستبدين على اختلاف أنواعهم وأشكالهم .

فلو كانت المرأة تتعرض للظلم الاجتماعي، ولم يكن بمقدور الزوج أو الابن أن يأخذوا لها حقها، فما الذي تصنعه هذه المرأة؟ هل تتخذ موقف الصمت فتتنازل وتقبل بالهزيمة؟

الجواب: كلا؛ لن يكون ذلك منها مادامت هناك فاطمة الزهراء عليها السلام تقف على قمة الزمن تتحدى وتصرخ بوجه الظلم والإنحراف، فهي القدوة التي وقفت تطالب بحقها؛ لا طمعاً بما ينطوي عليه هذا الحق، بل لمجرد كونه حقاً، حيث لا ينبغي لها أن تسكت، وكانت مطالبته تلك - من ناحية أخرى - درساً لكل الأجيال، لا سيما الشطر النسوي منه .

فالزهراء عليها السلام دخلت الساحة السياسية مدافعة عن فدكها الذي كان يتضمن في حقيقة الأمر الدفاع عن الإمام علي عليه السلام ومجمل التراث النبوي الشريف، فهي دافعت في الواقع عن أحقية أهل البيت في تولي قيادة الأمة، إنها نزلت إلى المعتزك رغم المصائب الجسدية والنفسية التي تعرضت لها وهدت قواها، فقد تراكم على قلبها هموم الأيام بفقدانها أباه النبي الأكرم، فعاشت في تلك الأيام بعد رحيل النبي وهي ترى تراثه نهياً يتلاقفه القوم، وهي ترى زوجها الذي قام الإسلام بجهوده الجبارة، تراه يضطهد ولا من مدافع، وترى الإمامين السبطين الحسن والحسين عليهما السلام لا حول ولا قوة لهما في إصلاح ما أفسدته الجاهلية الثانية التي اختلقها الطامعون. إنها رغم كل ذلك تقف شامخة كالطود العظيم تدافع عن الحق والحقوق المهذورة؛ تلقي بالحجج البالغات والدلائل الدامغات وتشهد من شاهد وشهد، تدافع عن القضية التي كانت فدك عنواناً ومفتاحاً لها .

وجذوة القول؛ إن المهم في سيرة الزهراء سلام الله عليها هو تصديها بنفسها للدفاع عن الحق، فهو -الدفاع- قيمة إلهية عظمى، وهو قمة الخلق السامي والرفعة الإنسانية. ومن هذا كله تتجلى أمام أنظارنا الحكمة الربانية القاضية بأن تكون الصديقة الزهراء هي العقب الطاهر والامتداد الكريم لرسول رب العالمين، فلم يكن من العيب بمكان أبداً أن يقول الرسول الأكرم: فاطمة أم أبيها وهو الذي لا ينطق عن الهوى إن هو -نطقه- إلا وحي يوحى. وهذا يعني أن قيم ومفاهيم الرسالة كادت تتلاشى لولا وجود وجهود الزهراء، حيث أوضحت الحقائق وكشفت عن خفايا الطمع والجاهلية لكل ذي سمع ونظر وعقل .

درس من الزهراء عليها السلام

لعل النظرة إلى المرأة من منظار الجاهليتين؛ الأولى والحديثة قد تكون واحدة، وهي نظرة التشاؤم والاستبداد، إلا أنهما تختلفان في أسلوب التعامل معها .

فالجاهلية الأولى كانت تدفع بالرجل للتخلص من المرأة باعتبارها نذير شؤم له، فكانت المرأة تتعرض للوآد أو التشريد أو الحرمان أو الاستعباد. أما الجاهلية الثانية المعاصرة فهي تتعامل مع المرأة على أنها مجرد دمية ووسيلة ترفيه، وكأنها خلقت دونما كرامة واحترام وشخصية .

فهي إذا كانت في الجاهلية الأولى تستعبد في خدمة الرجل، فهي اليوم لا هم لها إلا الاهتمام بمنظرها وزينتها، وكل ذلك يصب في مصلحة الرجل بصورة أنانية مباشرة أيضاً. فهي -حسب الجاهلية الثانية- ليست إلا سلعة



عامة تجتذب الرجال عن طريق عرض المغاتن، وبين هذا وذاك أضحت دون كرامة أو إنسانية؛ فإما تراها في حالة إشباع الغرائز الرخيصة، وإما تراها في حالة الانتقام الوحشي من ذلك الاستغلال البشع .

ولكننا نرى الزهراء سلام الله عليها تجيب عن التساؤل عما هو خير للمرأة، فنقول: خير لهن أن لا يرين الرجال ولا يرونهن ([31]) أي أن على المرأة أن تصون كرامتها وعزتها بما استطاعت من العفاف .

لا شك في أن أعظم دور وأفضل نشاط تقوم به المرأة بحيث ينسجم وطبيعتها التكوينية والنفسية، هو ما تؤديه في محيط بيتها وأسرتها. يشاطرنا في ذلك كل منصف لم يتأثر بأبواق الدعاية المفسدة، ولم ينجر مع التيارات المنحرفة التي تريد للمرأة الضياع في عوالم الانحلال والفساد .

ويعتقد الكثير منا أن الرجل هو الخيمة، وهذا هو ظاهر الأمر، ولكنني اعتقد بأن المرأة هي عمود هذه الخيمة، وهي المحور الذي تلتف حوله الأسرة وينجذب نحوه أعضاؤها. فالمرأة - على هذا الأساس - تمثل مركز انسجام الأسرة، بينما الرجل يأخذ منصب الراعي والحامي والمدبر والمسؤول عن توفير ضرورات العيش والاستمرار .

وإذا كان ليس خافياً تأثير الأم على أولادها من حيث التربية والرعاية العاطفية والتنمية الإنسانية، فإنه لا بد من الإشارة إلى قضية لا تقل أهمية عن ذلك، وهي تأثير الأم على جنينها الذي هو في بطنها، وقد فصل العلم الحديث مصداقية قول الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، حيث قال: السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقى في بطن أمه ([32]) نظراً إلى ما تتركه الأم من آثار لا تنكر على جنينها، وهو خاضع بصورة مباشرة منذ كونه نطفة في الرحم وحتى بلوغه الخامسة عشرة من عمره على أقل التقادير، مما يحمل المرأة على ضرورة وعي موقعها ومكانتها تجاه أسرتها، ويحملها أيضاً على النهوض بمستواها العاطفي والثقافي حتى تكون في موضع يؤهلها لتكون مركزاً ومحوراً لحركة أسرتها .

وليس بخافٍ على أحد من المسلمين أن فاطمة الزهراء سلام الله عليها كانت الرمز الأوضح في النبل والعفة والبطهاره، حتى أنها استطاعت عبر ذلك إيجاب ذرية كالأمامين الحسن والحسين وزينب عليهم السلام، وكفاهم بذلك فخراً، وكفاهم بأهمهم فخراً، حيث حفظ الإسلام بوجود وجهود هذا البيت الطاهر .

## الزهراء عليها السلام محور بيت الرسالة

«في بُيُوتِ أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ \* رَجَالٌ لَا لُتْهِمَهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ \* لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ \* وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَائِلاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ \* أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ » (النور/36-40)

من المؤكد أنّ الله تبارك وتعالى قد خلق الخلق برحمته، وأنّ رحمة الله هي الغاية والهدف الذي تتكامل عنده معالم الخلق. فترى ما هي هذه الرحمة؟ وأين هي؟ وكيف تجلت؟ ..

حينما أراد الله جلّ وعلا ان يزيح الظلمات عن الأرض خلق شمساً مضيئة وقمرأ منيراً. وحينما أراد ان يسقينا ماءً خلق السحاب وجعلها وسيلة لذلك. وحينما أراد ان يرسي الأرض على قواعدها خلق الجبال. والمقصود مما تقدم ؛ ان ربنا سبحانه حينما يريد شيئاً فهو يهيء أسبابه، فما هي أسباب ووسائل الرحمة ؟ وأين هي ؟

وبصراحة مطلقة أقول : ان أسباب الرحمة هي محمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين، إذ أن الله لما أراد أن يرحم العباد شاء أن تتجلى فيهم رحمته ، فخلق أنواراً جعلها بعرضه محدقة ؛ تسبح وتهلل وتكبر، ثم خلق من هذه الأنوار السماوات والأرض والملائكة، وهللت الأنوار فهلل معها كل شيء، وسبحت فسبح معها كل شيء ، وخلق الله الجنة من الأنوار المحيطة بالعرش ، فجعلها الله وسيلة رحمته، وكما قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

وسلم :إنما أنا رحمة مهداة ([33]) وعليه فلا فرق لدينا في ان يقول القائل: اللهم ارحمني برحمتك، أو: اللهم ارحمني بمحمد وآل محمد، فالنبي وآله هم رحمة الله وهدف الخلق .

فاطمة الزهراء عليها السلام هي المحور

جاء في سورة النور المباركة : « اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ الرَّجَاةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ \* فِي بُيُوتِ أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » ففي هذه البيوت يتجلى نور الله، وعبارة «في بيوت» أوضح من ان يضاف إليها شرح أو تفصيل، إذ هي إشارة مباشرة الى عظمة القرار الإلهي النابع من علمه القديم وإرادته القاهرة .

ولكن ما هي هذه البيوت، وما محورها ومركز ثقلها؟ فهل هي بيوت من ذهب أم رخام؟ وهل هي قصور أم اكواخ؟

ان المقصود من هذه العبارة المقدسة هو الأسر، والبيت صفة رمزية للأسرة، كما يقول القائل: بيت العالم الفلاني ويرمز الى عائلته. فبيت الرسالة ومهبط الوحي هو عائلة الرسالة ومركز الاشعاع ومنطلق النور الإلهي .

أما ما محور هذا البيت ، هل هو النبي او الإمام علي او السبطان؟

أن محور بيت النور هو فاطمة الزهراء سلام الله عليها. فالعلاقة الظاهرية بين جميع أفراد أهل البيت عليهم السلام تلتقي عند الزهراء ، اما العلاقة الباطنية -وحسب شهادة القرآن الكريم- فالنبي وأمير المؤمنين نفس واحدة، وعلى أي حال فان التصور الأكبر هو أن آية « في بيوت » يتجلى فضلها في حق فاطمة الزهراء عليها السلام .

وأعود الى القول: بان الله تبارك وتعالى حينما أراد بمشيئته القاهرة ان يرحم العباد خلق نور النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه، وانقسم هذا النور- كما تؤكد الروايات- الى ثلاثة أقسام؛ قسم خلق الله منه النبي نفسه، وقسم خلق منه فاطمة الزهراء ، وقسم خلق منه أمير المؤمنين وذريته الأئمة المعصومين .

وبسبب هذا النور نرى الجبال راسيات والشمس مضيئة والقمر منيراً، ولولا بركة محمد وآله لساخت الأرض بأهلها ، فهم أبواب الرحمة الإلهية .

انهم عباد مكرمون

إن الله سبحانه وتعالى حينما يستعرض من خلال القرآن واقعاً معيناً او قصة تاريخية إنما يريد ان يذكرنا بعيرتها ، ولعل العبرة من الآيات المتلوة هي منع الناس دون ان يخيّلوا لأنفسهم بأن النبي وأهل بيته لهم ذاتية، او كونهم آلهة صغار -والعياذ بالله-. فهم بدورهم يسبحون الله اكثر من غيرهم، واذا كان الجهل والغفلة أمرين طبيعيين في الإنسان، فإن الله بعد الإشارة الى عظمة هذه البيوت وأوحديتها في التاريخ يعطف عليها بقوله المجيد: « وَ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ \* رَجَالٌ لَا تُلْهِهُمُ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ . »

ان المعادلة ثابتة كل الثبات؛ فكما أن الإنسان ينام باطمئنان بالغ اذا ما كان بيته خالياً مما يثير طمع السراق ، او انه لا يطبق له جفن إذا كان في بيته الأموال الطائلة. كذلك كلما تضاعفت رحمة الله على الإنسان، كلما خشي من فقدانها او التفريط بها اكثر. ولان رحمة الله قد تجلت في النبي وأهل بيته عليهم السلام، فخشيتهم من الله اكثر، لانهم مع تقتهم بالله لكن معرفتهم بالله اكبر ، ولذلك فخشيتهم منه اكثر . فإله تعالى يقول : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » (فاطر/28)

نبينا هو نبي الرحمة، واميرنا قسيم الجنة والنار ، وسيدة نساء العالمين شفيعة الأمة ، ولكنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، خوفاً يدفع بهم الى الطاعة المطلقة ، والابتعاد عن الذنوب. وهذا الإحساس بالخوف والعصمة المتكرسة لديهم هو الأمر المتناسب تماماً مع ما سيجزيهم الله من حسن الثواب وما سيزيدهم من رزقه غير النافذ ابداً .

اما الذين لا نور لهم، فلا يمكن ان يكون لهم من الحظ شيئاً، قال الله تعالى: « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوقًا جَسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ \* أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ » وفي ذلك إشارة واضحة الى أهمية انتباه المسلم وضرورة محاولته الحصول على النور من مصدره الحقيقي والصحيح، وهو مدرسة أهل البيت عليهم السلام. ولذة الحصول على النور ما بعدها لذة ولا اروع منها، اذ هي منتهى الرغبات وغاية الغايات .

مسؤوليتنا تجاه اهل بيت الرسالة

ويقفز الى السطح سؤال ملح جداً ؛ والإجابة عليه على درجة بالغة من الخطورة: ما هي مسسؤوليتنا تجاه هذا النور والرحمة الإلهية وأهل بيت الرسالة؟

وبعد مزيد من التفحص يبدو إن الإجابة تكمن عبر تأدية ثلاث مسؤوليات جسام، ومن دون اداء هذه المسؤوليات لن ينفع الإنسان ما يعمل، نظرا لانه سيعمل دون عقيدة صحيحة أو قلب سليم .

المسؤولية الأولى: التسليم بحق ومنزلة أهل البيت عليهم السلام، وهذا يستدعي تطهير نفوسنا من أمراض الضغينة والحسد والكبر. ان البعض من المسلمين يحاول برأيه الشخصي الصادر عن غير تفكر وإخلاص وحسن نية، بل يسعى البعض الى تجبير وقولية العقيدة الإسلامية ، ولو في الأصول المتفق عليها- حسب ما تملبه عليه رغباته ومصالحه وما وجد عليه آباءه- والأخطر من ذلك وأدهى ان بعض من يحشر نفسه في صف الموالين لفاطمة الزهراء وأهل البيت يحاول بطريقة أو أخرى ان يحذف أو يختصر بعض الأحاديث مدهانة لأعداء الدين، أو جهلاً بعلم الحديث والتفسير، فضلاً عن عدم إلمامه بفصول اللغة والبلاغة التي هي العنوان الأول في شكل وصورة الروايات .

ربنا سبحانه وتعالى يؤكد : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوقًا جَسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ » فالاعتقاد السليم هو الأساس في العمل الصالح، ومن دونه سيكون العمل مهما كانت صورته صالحة وجميلة سراباً لا حقيقة له، بل الباطل والانحراف والخيال هو الأساس في خداع الإنسان وإضلاله، حتى يفاجأ بمصيره المحتوم، إذ يلقي الله من دون أي رصيد حقيقي صالح .

وما اتعس الإنسان واحقر به ان يستمر في حياته على أساس كذبة تاريخية كبرى تؤدي به في نهاية المطاف الى السقوط في مهاوي جهنم وبئس المصير .. فأن يمشي المرء بطيئاً ويصل الى هدفه في الآخرة، خير من ان يسابق الريح والزمن ولكنه يسير في الانحراف ولا يصل الا الى ما يكره، وكما تقول الرواية الشريفة عن أبي عبد الله عن ابائه عن أمير المؤمنين عليهم السلام جميعاً قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: عليكم بسنة، فعمل قليل في سنة خير من عمل كثير على بدعة. (34] )

المسؤولية الثانية: لكي لا يكون ولاؤنا وارتباطنا بأهل البيت، وبالأخص منهم سيده نساء العالمين ولاءً وارتباطاً هامشياً أو مجرد حلم، لابد ان نعي مقامها وحقها ودورها في العقيدة الإسلامية ، فإنه لا يكفي مجرد معرفة انها بنت الرسول او زوجة الوصي او ام الأئمة ؛ فالمعرفة الواقعية بفضل فاطمة الزهراء وبقية آل الرسول هي العامل المكّرّس للتسليم بأمرهم .

المسؤولية الثالثة: الاتباع والافتداء بسيرة فاطمة الزهراء عليها السلام. فنحن اذا نظرنا الى تفاصيل ملحمة مطالباتها بفدك نظرة واعية فستكون أمامنا من الدروس والعبر ما لا حصر لها. فهي أولاً لم تتقاعس عن مطالباتها بحقها او استعراض مظلوميتها ، رغم ان الظروف الاجتماعية والسياسية والصحية التي ألمت بها كانت صعبة للغاية .

وهي في طريقها الى المسجد لمباهلة الخليفة الأول التزمت - بما للكلمة من معنى - بشروط العفة والشرف، وضربت بذلك أروع مثال لجميع نساء العالم ..

ومهما يكن؛ فان سورة النور التي ترسم صورة الأسرة المسلمة الفاضلة، وتحدد نوعية العلاقة بين الزوجة أو الام ببقية أفراد العائلة، إنما هي تبين فضيلة فاطمة الزهراء سلام الله عليها. ولا يخفى ان فاطمة الزهراء سلام الله عليها كانت المحور لأسرة آل الرسول، فهي البنات والزوجة والام لخير خلق الله .

كما ان علاقة هذه الحوراء الإنسانية بالنساء وتأثيرها الإيجابي عليهن كان قمة في الأداء والروعة . فهي كانت تحدثهن حول الفضيلة والعلم ومنزلة العلماء ، حتى تزيل الحواجز بينها وبينهن فيستزدن منها المعرفة والإجابات التفصيلية على كل ما يشكل عندهن .

ولا يغيب عنا؛ اننا اذا سمعنا قول الله تعالى: « وَلَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » فذلك يعني؛ كما لكم في رسول الله أسوة حسنة، كذلك في فاطمة وبعلمها وبنيتها، لإنهم كلهم نور واحد. وعليه يجب ان نتأسى بهم، ونتبع خطاهم، ونقتدي بهديهم.. وبذلك نحاول ان نتمثل أشخاصهم وسلوكهم في حياتنا، لأن سلوكهم وسيرتهم وكلامهم حجة علينا .

هكذا تجلت الرحمة الإلهية في شخصية فاطمة الزهراء وأبوها وبعلمها وبنوها عليهم صلوات الله أجمعين. غير ان ما يؤسف عليه ان المسلمين لم يؤدوا حق هذه الرحمة، الى درجة ان بعض أهل العلم؛ بعض الكتاب؛ بعض الخطباء .. راح يشيع ان المصائب التي جرت على أهل بيت الرسالة والتي تذكرها كتب التاريخ والتي يرويها الخطباء ويحرقها الكتاب، إنما هي مبالغ فيها . فحسب قول أحدهم: هل من المعقول ان يأتي من يجمع الحطب على باب بيت فاطمة عليها السلام ويضرم فيه النار؟ هل من المعقول ان يفتحوا باب بيت فاطمة عليها السلام عنوة ويعصروها خلف الباب؟ هل من المعقول انهم يفعلهم هذا اسقطوا جنينها؟ هل من المعقول انهم تجرأوا على ضرب فاطمة عليها السلام على مرأى من المسلمين؟ ..

لماذا نستبعد ذلك ، وقد نشاهد بأمر أعيننا اليوم أعداء أهل البيت كيف عمدوا الى هدم قبورهم في المدينة المنورة ، وكيف يحجبون الناس عن مرقد النبي صلى الله عليه وآله ويمنعون الناس من الدنو من مرقد الأئمة المعصومين في البقيع؟؟

وبصراحة أقول : ان ما ذكره المؤرخون لنا من مظلومية أهل البيت عليهم السلام، وما جرى عليهم من اضطهاد ليس إلا نزر يسير، وما أخفوه أكثر من ذلك واعظم بكثير . وذلك خشية من سطوة الطغاة الحاكمين، وطمعا بالدنيا وملذاتها ..

وعلى هذا يجب ان نحذر الوسواس الشيطانية ، وان نجعل مظلومية هذه السيدة الجليلة الزهراء البتول وأهل بيت العصمة عليهم السلام -سواء في الماضي او في الحاضر- منطلقاً الى التمسك بخطها الاسلامي الاصيل وجعلها نبراساً لإيماننا وميزاناً دقيقاً لعقيدتنا .

## الزهراء عليها السلام قدوة ورمز

فاطمة الزهراء عليها السلام، هي تلك الصديقة التي كانت سراجاً منيراً تجلى فيه نور الرسالة عبر والدها العظيم النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله. وما اجدرنا ونحن نمتلك في تاريخنا هذه القدوة المثلى ان نقارنها بواقع المرأة اليوم. فنحن نعيش الآن أزمة أفرزتها الجاهلية الجديدة التي تكاد تحطم البشرية، وتسحق كرامتها؛ ألا وهي مشكلة المرأة التي تحولت الى مشكلة حادة من مشاكل العصر .

ان هناك في عالم اليوم منظمات ومؤسسات تدعو الى ما تسميه بـ (حقوق المرأة) ، في حين إنها -في الواقع- لا تدعو إلا الى تفوق الرجل على المرأة، وإطلاق يد الوحشية الذكرية ضد ضعف الأنثى. هذه الوحشية التي تبتدئ اليوم كل طاقات الإنسان .

قبل خمسين عاماً لم يكن يخطر على بال احد بأن من الممكن ان تكون النوايا الحقيقية لدعاة حقوق المرأة هي سحق كرامتها، والدعوة الى اغتصاب حقوقها، وتحطيم كيانه.. ولم يكونوا يدركون ان هذه الدعوة ما هي إلا دعوى شيطانية تطلقها ابواق الضلالة والفساد في الأرض. بل لم يكونوا يعلمون ان وراء هذه المؤسسات أيادي صهيونية مكررة تريد ان تقوض كيان المجتمعات ، وتحولها الى قطعان من الغنم تسوقها حيثما شاءت أهواءها .

واليوم وبعد ان انجرفت الجاهلية الحديثة الى ما انجرفت اليه من حضيض الفساد والميوعة والانحلال الأخلاقي، والملايين من المشاكل الفردية والاجتماعية.. نستطيع الآن ان نقول وبكل قوة وثقة، ان تلك الدعوى لم تكن إلا فخاً لاصطياد الكرامة والقيم، والإنسان والإنسانية .

وقبل ان نسلط الأضواء على حقوق المرأة، لابد ان نوضح فلسفة وحكمة ضعف المرأة أمام الرجل، وقيومية الرجل عليها، حيث قال الله تعالى: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ» (النساء/34).

ان الحكمة الرئيسية، هي الحاجات المتبادلة بين جنسين يتكاملان، ليكتملا مسيرة الحياة عبر التربية الحضارية التي تتوارثها الاجيال. والحكمة في هذه (التكاملية) معروفة. فقد خلق الله عز وجل الكون بحيث يعكس كل شيء فيه الدلالة على انه هو الحي القيوم الغني بذاته. فالحكمة هي التعاون بعد التعارف، وهذه الحكمة هي التي أودعت الحاجة المتبادلة بين الرجل والمرأة. ففي كل تجمع صغيراً كان ام كبيراً هناك حاجة الى اختيار رجل كقائد له، وبإمكانه ان يتحمل الواجبات والمسؤوليات المضاعفة.

ولذلك فان هناك ضعفاً طبيعياً في المرأة امام الرجل، وهذا الضعف لابد ان نعترف به لنبدأ بمعالجته، ولنبدأ أيضاً بتحديد الجانب القوي، الذي من شأنه ان يتحول إلى وسيلة للاعتداء على الجانب الضعيف.

### احترام الضعيف سرّ التحضّر

إن احترام الإنسان الضعيف هو سرّ كلّ تحضّر وتقدّم في التاريخ. فالحضارة التي تحترم القوي لقوته، وتسحق الضعيف لضعفه وعجزه ليست بحضارة. فليس متحضراً ذلك الإنسان الذي يحترم القوي، بل ان الإنسان المتحضّر هو الذي يكن الاحترام ويشفق على الضعيف، ويحاول أن لا يعتدي عليه سواء كان متمثلاً في المرأة، أو اليتيم، أو أي إنسان مستضعف.

وهكذا فان المجتمع المتمدن هو المجتمع الذي يكون الضعيف فيه محترماً، والمظلوم منصوراً حتى يؤخذ له بحقه.

ومن ضمن الحقوق التي يجب ان يحترمها المجتمع حقوق المرأة؛ هذه الحقوق التي يجب ان تؤخذ من الرجل القوي الذي قد يفرض إرادته عليها، وهنا تأتي التشريعات والقوانين والأخلاق الإسلامية لتأخذ للمرأة حقها من الرجل.

ومن حقنا ان نتساءل في هذا المجال: من الذي يأخذ حق المرأة من الرجل، ومن الذي يستطيع ان يكبح جماح اعتداء الرجل على المرأة، سواء كانت أختاً أم زوجة؟

للجواب على هذا التساؤل نقول: أن هناك ثلاث قوى بإمكانها أن تأخذ حق المرأة من الرجل، وهي:

1- القانون .

2-العقل .

3-قوة المرأة التي هي القوة الأهم .

أن المرأة القويّة تستطيع ان تأخذ حقها من الرجل، وان لا تدعه يغتصب هذا الحق منها. فالإسلام لا يوصي الرجل باحترام المرأة فحسب، ولا يوصي المجتمع باعطائها المنزلة اللائقة بها، ولا يكتفي بأن يأمر الرجل باحترام والدته، بل انه يمنح قبل ذلك المرأة القدرة والهيبة والصلابة والإرادة القوية لكي تأخذ حقها من الرجل. وهذا هو المهم .

فالإسلام يجعل الإنسان مؤمناً بقواه وقدراته، واثقاً من نفسه، وذلك من خلال طرح القدوات الصالحة أمامه، والتي تجعله يؤمن بقدراته. ففي التاريخ نرى أن الأنبياء عليهم السلام كانوا من البشر، وهذه الظاهرة تدفعنا الى التساؤل: لماذا لم يبعث الله تبارك وتعالى أنبياء من الملائكة؟ ولماذا يؤكد تعالى على أن النبي لابد أن يكون من البشر؟

إنما لكي يكون قدوة، ولذلك تأتي الآيات القرآنية الكريمة مؤكدة هذه الحقيقة، كقوله تعالى: « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ » (الكهف/110).

وهذا التأكيد المتوالي دليل على أن بشرية الرسول هي قضية مقصودة، والسر في ذلك هو لكي يتغلب الإنسان على أهواء نفسه من خلال الاقتداء بالصديقين والأولياء والصالحين، الذين تغلبوا على طبيعتهم البشرية وما فيها من عناصر وعوامل الضعف، فاقترحوا العقبات وقاوموا المشاكل واستسهلوا الصعاب وضحووا بأنفسهم.. وعندما يرى الإنسان كل ذلك، تنبعث في نفسه الشجاعة والإرادة القوية .

وفاطمة الزهراء عليها السلام هي قدوة المرأة. هذه القدوة التي تدفعها الى ان تناهض أولئك الذين يريدون اغتصاب حقوقها، والاعتداء على

حرماتها؛ والذين قد تكاثروا في العصر الحديث .

ان الدعاة المزيفين لحقوق المرأة قالوا: إنها لا بد من ان تشارك الرجل في جميع أعماله، وهذا يعني في رؤيتهم ان تكلف المرأة بما لا تطيقه من الأعمال الصعبة المجهدة. ثم قالوا بعد ذلك ان من ضمن حقوق المرأة ان تخرج متبرجة سافرة الى الشوارع والأسواق، وعندما خرجت كذلك كان المستفيد هو الرجل وشهوته .

الحضارة الغربية والتفسخ الأخلاقي

ونتيجة هذا التوجه، ونتيجة للانفلات والانحلال الخلقين السائدين فيه، فان هناك إحصائيات تؤكد ان ما يقرب من (15) مليون امرأة قد اغتصبن بالقوة في الولايات المتحدة الأميركية. وهذا يعني ان المرأة في الغرب قد تحولت الى سلعة رخيصة !

ترى ما هذا التوحش الذي راحت ضحيته المرأة اليوم في ظل ما يسمونه بالحضارة ؟ إن المرأة أصبحت منبوذة وخصوصا عندما يتقدم بها السن، حيث تنقل الى دور العجزة لتجرب حسراتها هناك، وتعاني من الوحدة، وتموت في آلامها .

وفي مقابل ذلك نرى ان الإسلام يوصي بالأم ثلاث مرات قبل ان يوصي بالأب، كما ويوصي بالإنسان الطاعن في السن معبرا عنه انه كالنبي في قومه. كما ان الإسلام يعطي الكثير من الحقوق والامتيازات للمرأة؛ فالزواج ببديها وهي التي تملك أن ترفض الزواج إذا كان لا يوافق مصلحتها، كما أن لها حق تعيين المهر، ولها الحق أيضاً في أن تحتفظ بولدها لفترة طويلة في حالة الطلاق لأنها أم، والإسلام أوصى بالأم قائلاً : الجنة تحت أقدام الأمهات (35].

وبالإضافة الى ذلك فقد أكد الإسلام على ان تكون المرأة مصونة، لكي لا تذهب ضحية النزعة الوحشية لدى بعض الرجال. وذلك من خلال جعلها سيده الموقف بإرادتها، لان المرأة التي تترك المساهمة في الحياة، وتنبذ مسؤولياتها جانباً، عندئذ لا تلبث أن تتحول الى قمر يدور في فلك الآخرين. ومثل هذه المرأة لا قيمة لها، لان من المفترض فيها ان تتحمل المسؤولية في جميع الاوامر والواجبات الشرعية باستثناء الحالات المنصوص عليها شرعا .

ولذلك فان القرآن الكريم لا يوجه خطابه الى الرجل فحسب، بل يقول: يا ايها الناس... و يا ايها الذين آمنوا ... لكي يشمل هذا الخطاب كلاً من الرجل والمرأة. فالمرأة مطالبة بأداء كل الواجبات من خلال تزويد نفسها بالإرادة التي من الممكن ان تستوحياها من نساء عظيمات مثل فاطمة الزهراء عليها السلام هذه المرأة التي تعتبر المثل الأعلى للتربية القرآنية، والقدوة المثلى للمرأة المسلمة .

## تجلي الرسالة في النساء

وكما أن الرسالة قد تجلت في الرجال، وخصوصاً في رسول الله محمد صلى الله عليه وآله، الذي كان خلقه القرآن، وكان المجسد للرسالة. فان هذه الرسالة قد تجسدت أيضاً في النساء، وفي مقدمتهن شخصية سيدتنا فاطمة الزهراء عليها

السلام، التي عاصرت الإسلام منذ أيامه الأولى، وهي في بيت الوحي .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله هو معلمها الأول. لذا لم تنته الزهراء عليها السلام في شخصيتها، بل امتدت عبر ذريتها الطاهرة ..

صحيح ان المرأة المسلمة يفصلها اليوم عن فاطمة عليها السلام أربعة عشر قرناً، ولكن سيرتها الوضاعة تستطيع ان تلهمها وان تكون مدرسة لها. وسنقوم فيما يلي بعرض جوانب بسيطة من عظمتها وشموخها اللذان استمدتھا من عظمة وشموخ الرسالة الإلهية. فرسول الله صلى الله عليه وآله الذي فقد حنان الأم وعطف الأب منذ سن مبكرة من عمره الشريف، كان يحسن بهذه العاطفة المفقودة في حياته، لأنه بشر كسائر البشر كما يقول تعالى: « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ». ولكنه سرعان ما وجد هذه العاطفة المفقودة في شخصية ابنته الزهراء عليها السلام .

لقد كان النبي صلى الله عليه وآله عندما يعود من صراعه مع الجاهلية، وعندما يفرغ من دعوته للمشركين الى نبذ آلهتهم؛ كان صلى الله عليه وآله يسارع الى ابنته فاطمة التي كانت بدورها تحوم حوله، لتحوط هذا القلب الكبير بعاطفتها الجياشة، ولتضمد جراحاته، وتسكن آلامه.. تماماً كما كانت تفعل ذلك والدتها خديجة الكبرى رضوان الله عليها. وهذا ما دفع النبي صلى الله عليه وآله الى أن يقول: إن فاطمة أم أبيها ([36])، و إن الله عز وجل ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها ([37])

وفي خلال الحصار الذي ضربه المشركون على بني هاشم في شعب أبي طالب؛ في تلك الفترة الحرجة من حياة الرسالة الإسلامية لم تكن فاطمة تشعر بالخوف، رغم انها كانت في سن مبكرة من حياتها، ورغم إنها كانت قد فقدت والدتها في تلك الفترة، ولكن صبرها الذي استوحته من قدرة التوكل على الله تعالى وثقتها به، هذا الصبر كان يمنحها الثبات والمقاومة والصمود .

ومن الدروس التي نستطيع أن نستلهمها من حياة فاطمة الزهراء عليها السلام، هو درس الفاعلية والنشاط. فلم يعرف عنها أنها قد توقفت عن هذا النشاط، ولو للحظة واحدة من حياتها. فقد كانت تقضي ليلها في العبادة والضراعة والدعاء للمؤمنين ، ونهارها في مؤازرة والدها وزوجها، والقيام بمهام الرسالة سواء قبل الهجرة أو بعدها .

ويا ليتنا نفتسب من هذه الشعلة الإلهية درس الصبر والجهاد والشجاعة والعطاء.. فان ركن هذه المرأة لم ينهد رغم المصائب والآلام التي نزلت بها، والتي كانت في مقدمتها وفاة والدها وما جرى عليها بعد ذلك من ظلم وإجحاف. فكان همها الأول بعد ذلك الإبقاء على الخط الرسالي السليم والدفاع عنه، وعدم السماح بهبوط الروح الإسلامية في الأمة، ودخول عدد من المنافقين في أوساطها .

وفي حياة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء دروس ودروس؛ فمن أراد أن يقتدي بها لابد له أن يتعرف عليها، وأن يعيشها في واقعه .

## الزهراء عليها السلام في واقع المسلمين

بعد أن يسمو الشهيد الى الله سبحانه وتعالى ويلتحق بالرفيق الأعلى ينقسم الناس أزاءه الى ثلاث فرق؛ فرقة تؤمن به ويقضيته وتعمل في سبيل إحياء أمره ، وفرقة تكفر به وبمبادئه وتعمل في سبيل إخماد ذكره وإماتة أمره، وهاتان الفرقتان إنما تمثلان الأقلية الصحيحة ، أما الفرقة الثالثة فهي التي ينضوي تحتها أغلب الناس ؛ وهي الفئة التي كل جهدها أن تذرف الدموع على الشهيد ؛ فيما هي في واقع الأمر تصفق لأعدائه وتؤيدهم فعلاً .

الامة بعد استشهاد الزهراء عليها السلام

لقد ذهبت السيدة الصديقة فاطمة الزهراء سلام الله عليها، وهي أول شهيدة بعد رحيل الرسول الأكرم بظلامتها وحسرتها وآلامها وأحزانها الى ربها. ذهبت فاطمة، ولكن ماذا كان فعل المسلمين وأهل المدينة منهم بالخصوص تجاه هذا الخطب الفجيع الذي يحمل في طياته معالم الردّة والانقلاب على الأعقاب ؟

لقد انقسم الناس حياله الى ثلاثة أقسام -كما هي العادة- فقسم منهم بكى على سيدته الجلييلة قاطعاً على نفسه عهداً باتباع سيرتها والاستضاءة بنورها، وكان من هذا القسم رجال كسلمان المحمدي الفارسي- وأبي ذر والمقداد وعمار وابن التيهان .

وقسم بقي على بغضه لها وحبّه لعدوّها ، وهؤلاء كانوا أعداداً بسيطة كالمغيرة الذي ضرب السيدة الزهراء بيده الخبيثة في أحد أزقة المدينة وبقي على بغضه حتى آخر لحظة من حياته البغيضة المليئة بالأحقاد على مبادئ الإسلام. أما القسم الثالث، فكان يمثل الأغلبية من أهل المدينة، فقد بكوا الصديقة الزهراء وتعاطفوا معها قلباً، ولكنهم في الوقت ذاته خالفوها ومبادئها عملاً وصقّوا لأعدائها ووقفوا مع الذين قتلوها واستباحوا حقوقها .

## أزمة المسلمين الاولى

إن الأزمة التاريخية الحقيقية في حياة المسلمين هي هذه الازدواجية في السلوك ؛ الأزمة التي رفضها القرآن الكريم رفضاً قاطعاً، معتبراً ظهور بواورها أول ظهور الانكسار والردة والتخلف. وها هي الآن الملايين تبكي الحسين عليه السلام في أيام عاشوراء ذكرى استشهاده المقدس ، بل ويلطمون ويجرحون أنفسهم للدلالة على حزنهم وتضامنهم معه ، غير أن المنصف إذا ما اعتبر أعمالهم مقياساً لإيمانهم فسيعرف أنّ الكثير منهم لا ينتمي الى جبهة الحسين عليه السلام. فالعين تدمع من أجل الحسين ، واليد تصفق ليزيد ولكل من كان معه وخطه في هذا العصر .

والأنمة عليهم السلام كانوا قد شخصوا ذلك من قبل ، حتى أنهم وضعوا نصوص الزيارات الشريفة لسيد الشهداء التي جاء فيها : اللهم العن أول ظالم ظلم حق محمد وآل محمد وآخر تابع له على ذلك... اللهم العن العصابة التي جاهدت الحسين وشابعت وبايعت وتابعت على قتله (38] )

ونقرأ في زيارة الوارث ، وهي من الزيارات المعتمدة فنقول : بأبي أنت وأمي يا أبا عبدالله ، بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله ، لقد عظمت الرزية وجلت وعظمت المصيبة بك علينا وعلى جميع أهل السماوات والأرض ، فلعن الله أمة أسرجت وأجمت وتهيات لقتالك ... (39] . )

فأولئك الذين ظلموا آل الرسول وأولئك الذين خالفوا الرسول في أهل بيته قد ماتوا، ولكنهم أوثوا حقدهم وظلمهم وبغضهم لأبنائهم وتابعيهم، ولذلك نجد الكثير من هم في خط يزيد بن معاوية . فحكاهم العراق الآن - دون أدنى شك - هم التابعون والوارثون الحقيقيون لظلم الأمويين والعباسيين . واني إذ أبكي الحسين وأتابع أعدائه عملاً، إنما أكون مشابحاً لقتلة الحسين وورثتهم؛ بمعنى أن دمعتي وبكائي الطويل لن ينفعي بمقدار أنملة، ولن يغير من الواقع والحقيقة شيئاً أبداً .

إن المشكلة ليست في تلك الأقلية التي تبغض أهل البيت عليهم السلام قلباً وقالباً ، فهذه الأقلية كالكفرة الذين يعلنون كفرهم، وبالتالي فإن من الممكن التحسب لهم وأخذ الحيطة منهم. ولم تكن المشكلة في يوم من الأيام في الأقلية التي تعلن ولاءها لأهل البيت وتقلدهم في كل صغيرة وكبيرة، ولو أدى ذلك الى خوض المصاعب والمحن كما أثبت التاريخ. فهذه الأقلية تحتل قمة الإيمان، وهي قلب الدين النابض، لكن المشكلة في هذه الأكثرية المصابة بمرض الازدواجية ، حيث تؤمن بأهل البيت كأئمة حق وتعمل ضد ما يأمر به وينهون عنه .

ولقد صدق القائل حينما وصف للإمام الحسين عليه السلام واقع أهل الكوفة حيث التقاه في طريقه اليها بقوله : يا ابن رسول الله؛ قلوب القوم معك وسيوفهم عليك .

نحن والزهراء عليها السلام

بداعي التفاوت في روايات استشهاد الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام نعيش عدة أيام هذه الذكرى الأليمة . والسؤال المطروح الآن هو: أين نحن من سيرة سيدة نساء العالمين التي نعتبرها المعيار والقُدوة، لاسيما وأنا نطلب شفاعتها ونؤكد أننا من شيعتها ؟ فهل نحن كذلك فعلاً ؟ وكيف نكون معها ولا نكون في الجبهة المعادية لها ؟

والجواب يبدو واضحاً وجليّاً للغاية ، وبإمكاننا معرفته بواسطة مقارنة سلوكنا بأفعالها ومواقفها أولاً ، وبمقارنة أقوالنا بأقوالها. والأمر ليس مستعصياً أن يتعرف كل واحد منا على فعل الزهراء، حتى يقيس نفسه بها .



وأقولها بكل صراحة: إنَّ من المستحيل أن تتبع أمة من الأمم نهج فاطمة الزهراء وموازينها ثم تكون أمة متخلفة. فآمة تتبع الزهراء لا تستضعف ولا تذلل . وعلى ذلك كله، فإن التخلف والذلة والاستضعاف إنما منشأه نحن أولاً وأخيراً، وليس في معايير الزهراء .

وتبدو الازدواجية ظاهرة كل الظهور علينا، حيث نعيش هاجس الخوف

والرعب من أن نتخطفنا الأمم من حولنا، ومع ذلك ندعي بصلافة بالغة اتباع الزهراء ومحبتها. فهذا هو التناقض بعينه والخرافة بعينها، إذ لا يمكن مطلقاً أن يكون نهج الزهراء نهجاً يحملنا الالتزام به الى التخلف والفرقة والذل .

إن أبرز ما خلده الزهراء من سيرة فاضلة مجاهدة هو أنها لم تعش لنفسها أو تفكر في نفسها كإنسانة وكصديقة، بل هي عاشت لنهج الإسلام الأصيل؛ دين أبيها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن نماذج هذه الحقيقة أنها حينما عادت من المسجد لاحتجاجها على مصادرة الحق من قبل الخليفة الأول، وجدت أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام جالساً في زاوية من زوايا البيت وقد احتضن ركبتيه حزياً متفكراً بشأن هذه الأمة التي خالفت رسولها فور وفاته، بالرغم من أن الرسول كان قد أخبره بكل شيء سيحدث بعده اشتكت الزهراء لزوجها أمير المؤمنين ظلامتها محرّضة إياه على الأخذ بحقها لاسيما وهو بطل الأبطال وصاحب ذي الفقار وفتح خيبر.. فأجابها أمير المؤمنين بكلمات ؛ الغرض منها التهذئة والتخيير بين الأخذ بحقها وبين بقاء الدين . فهي إن أرادت حقها - الذي يبدو في الظاهر شخصياً - لا بد أن تعرف أن لا يبقى للإسلام وجود، وإن هي أرادت بقاء الدين لا بد أن تحتسب إلى الله ظلامتها وآلامها . حيث قال عليه السلام: فاحتسبي الله، فقالت عليها السلام: حسبي الله وأمسكت([40]) ثم لم تشتكي لأمر المؤمنين أبداً ، وهي التي كانت تعلم علم اليقين أنها لو اقترحت عليه الأخذ بحقها للبي الطلب، إذ هي فاطمة التي جاء فيها وان الله عز وجل ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها .([41])

وإذ تبين لنا أن مصلحة الدين هي الأساس في سلوك الزهراء عليها السلام، لنعد الى أنفسنا وننظر إلى مستوى وجود هذا الأساس والمعيير في سلوكنا ، فهل خالفنا مصالحنا الشخصية من أجل مصلحة الدين؟ وهل خالفنا منافعنا لصالح قضية دينية ؟

## منهج الزهراء عليها السلام في التربية

من القضايا والمؤشرات المهمة في حياة سيدتنا ومولاتنا الصديقة الزهراء سلام الله عليها قضية التربية، حيث أن ما عرفناه عنها أنها أنجبت الذرية الطيبة التي لا تدانيها ذرية إنسانية أخرى في الصلاح على مدى التاريخ، فهي القمة فوق القمم، وهي المثل الأعلى في الخير والأصالة .

ومن الطبيعي أن كانت لهذه التربية قواعد وأصول وضوابط؛ قد ألهمها الله للصديقة الزهراء. كما علمها أبوها صلى الله عليه وآله وسلم .

فيا ترى متى بدأت الزهراء وكيف ربّت أبناءها وبناتها؟

فالحقيقة تؤكد لنا أن فاطمة الزهراء عليها السلام قد أنشأت بطريقتها التربوية أعلى مدرسة مثالية؛ تخرّج عنها الحسان وزينب عليهم السلام .

ولمعرفة أبعاد كل ذلك تطالعنا بادئ بدء قصة عبادة وتهجد الزهراء، حيث كانت تحرص كلّ الحرص على اصطحاب أولادها إلى محراب عبادتها في آناء الليل وأطراف النهار، وتعلمهم بذلك أنواع التبتل والتهجد، حيث يروي الإمام الحسن المجتبي عليه السلام أن والدته الزهراء البتول قد أجلسته إلى جانب سجّادتها غارقة في التضرع إلى الله تعالى من أول الليل إلى انفجار الصبح، وهي آخذة بالدعاء لكل الناس؛ الأقرب فالأقرب من حيث الجيرة، ولكنها لم تشمل بدعوتها تلك أولادها، مما أثار فيه -الإمام الحسن- السؤال عن السر وراء ذلك، فأجابته بنظرة ملؤها العطف والحنان: يا بني الجار ثم الدار .

هذا من ناحية التربية الدينية التي تكاد تكون فريدة من نوعها. أما من الناحية العلمية ؛ فقد ذكرت لنا روايات التاريخ الفاطمي -على شحتها- كيف أن الزهراء كانت تعلم الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهما لما يبلغا الخامسة من العمر بعد، حيث كانت تطلب إليهما -كطريقة من طرق التعليم- إعادة ما سمعاه من خطاب الرسول الأكرم على مسامعها، ثم إنها كانت تعيد الكرة بحضور أمير المؤمنين عليه السلام ليطمئن قلبه على سيرتهما التربوية .

ولقد شاهد التاريخ المستوى الفريد من نوعه الذي بلغه هذان الإمامان الفدان في العبادة والخطابة، حتى أن العباد والخطباء كانوا في ذلك الزمن وما تلاه يقرّون لهم بالفضل والأولوية في هذين المجالين. فمعاوية على جراته الفاسية المعهودة كان يتمنى -ولو لمرة واحدة- أن يتفوق على الإمام الحسن في الحديث أو يحرجه في الكلام، فكان يجمع إليه العتاة المردة، أمثال عمرو بن العاص ومروان والمغيرة وغيرهم ممن لا تأخذهم في الباطل لومة لائم، فيبدؤون بمهاتراتهم الكلامية محاولين إيقاع الإمام الحسن المجتبي في المطبات الكلامية، إلا أنهم لم يكونوا ليجدوا منه سوى الحكمة والعلم والأخلاق ورباطة الجأش، حتى يقول قائلهم: لقد رُقّ الحسن بن علي العلم زقاً، وأن الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وهذا هو الحسين الشهيد عليه السلام نراه في واقعة الطف الدامية كالأسد الهصور في خطاباته كما هو في نزله، حيث لم يكن بوسع فرد من أفراد جيش الأمويين الجرار الذي تكالب على قتاله، أن يدانيه في الخطاب وإلقاء الحجة والبيان، مما اضطرهم في نهاية المطاف إلى رميه بالحجارة والنبال على بعد، تحاشياً عن مواجهة هيئته عن قرب .

وما هي الزهراء أيضاً نجدها في خطبتها الفدكية الشهيرة تختص ابننتها زينب بالإصطحاب إلى مسجد أبيها النبي الأكرم لتقارع الردّة والعناد والطمع الذي أصاب نفوس القوم بعد وفاة الرسول؛ الأمر الذي يشير إلى وعي الزهراء عليها السلام للحقائق والأحداث التاريخية، والمستقبلية، حيث كانت -بذلك- تنمي قابليات ابننتها زينب لتحدي الطغيان والفساد الذي سيصيب الأمة الظالمة في عهد الإمام الحسين عليه السلام .

وما أروع عقيلة الهاشميين حيث وقفت إلى جانب أخيها سيد الشهداء محامية عنه وعن أطفاله وأطفال وعوائل سائر الشهداء ، بالإضافة إلى وقوفها إلى جنب الإمام المعصوم زين العابدين في محنه، حتى أنه وصف قلب عمته بقوله : قلبها كزبر الحديد .

ولقد سجلت صفحات التاريخ بأحرف من نور خطابات السيدة زينب عليها السلام في مسجد الكوفة -وهو مسجد أبيها، كما كان مسجد المدينة مسجد النبي أبي الزهراء- حيث قارعت فيه طغيان عبيد الله بن زياد، وكشفت مفاصده على مرأى ومسمع من الناس، وكذلك لا ينسى التاريخ خطابات الأخرى التي ألقته في شوارع الكوفة ودمشق وفي قصر يزيد لعنة الله عليه، تلكم الخطب التي إن نمت عن شيء فإنما تتم على مستوى الوعي والحكمة والعظمة التي تحملتها زينب بنت علي لدى خوضها معترك السياسة والولاية .

وهذا بطبيعة الحال لم يكن ليحدث أو ليكون لولا ما بذلته سيدة نساء العالمين فاطمة البتول عليها السلام من جهود جبارة في تربية أولادها الكرام البررة .

وبين هذا وذاك، لا يسعنا سوى القول بأن بداية الانطلاق في تربية الأطفال وتنشئتهم إنما تكون منذ أن يروا نور الحياة. فالزهراء عليها السلام كانت على درجة رفيعة للغاية في امتلاكها لثقافة الأمومة التي من أول معطياتها النظر باحترام بالغ إلى الأولاد الأطفال وبالتالي التعامل مع كل فرد منهم على أنه إنسان مكتمل مؤهل لتلقي التربية والتعليم، وليس الانتظار به حتى يكمل السادسة والسابعة من عمره حتى يعلم أو يُربّى، كما هو حادث في زمننا المعاصر .

فإن تتعلم البنت قبل أن تكون أمّاً ثقافة الحياة وثقافة الأمومة ، خير لها من أن تتعلم علوم الحياة الأخرى، رغم عدم وجود المانع من ذلك .

فالبنات مسؤولة قبل كل شيء سواء أمام الله تعالى أو أمام مجتمعها عن تعلم أسس التربية والتعليم، بما يضم ذلك من القواعد الصحية خاصة بسلامتها وسلامة طفلها، ومن النواحي الروحية والعاطفية التي لا بد للطفل من أن يأخذ نصيبه الوافر منها، للحيلولة دونه ودون ابتلائه وتعرضه للآزمات النفسية التي تجرّ إلى الويلات الاجتماعية فيما بعد .

وكذلك من الأبعاد الدينية، حيث يتوجب على الأم ومنذ فترة انعقاد نطفة جنينها الإلتزام بتعاليم الدين الخاصة بطهارة المولد ونقاء الجنين أو الوليد أو الطفل اليافع من الحرام، فهذا كله ذو تأثير بالغ على حياته ومستقبله. فالخادمة الكافرة أو المسلمة غير الملتزمة على الأقل، واللّتين نراهما بكثرة في بيوت المسلمين لا يمكنهما بحال من الأحوال أن تأخذوا مكان ومنزلة الأم، سواء على صعيد إرضاع الطفل أو تربيته والشفقة عليه .

وفي نهاية المطاف أودّ القول بأن الأم المسلمة لا بد لها أن تعي موقعها الحساس في المجتمع ، إذ أن كل حركة أو سكونة تصدر منها لها الأثر البالغ على طبيعة أولادها وأجيالهم فيما بعد، وهذا الوعي من طبيعته أن يشمل النواحي الصحية والعاطفية والدينية والعلمية .

ولا يمكن بشكل من الأشكال أن تعي المرأة الأم كل ذلك بمجرد انها أصبحت أمًا ، بل لا بد من التمهيد لذلك عبر نشر ثقافة الأمومة، التي هي تجسيد لثقافة الحياة على وسعها، حيث تتكرس ضرورة تلقي البنات ومنذ نعومة إظفارهن تلكن الثقافة ، لتجري فيهن مجرى الدم في العروق، ولا أحسن من تدوين تفاصيل ثقافة الأمومة عبر الدراسة الدقيقة والواعية لحياة قنوات النساء المسلمات ، وفي مقدمتهن الزهراء البتول والسيدة زينب عليهما صلوات الله وسلامه .

## تأملات في خطبة الزهراء عليها السلام

خطبة الزهراء عليها السلام التي ألقتها على مسامع الناس بعيد وفاة أبيها وفي مسجده صلى الله عليه وآله تعد من أهم ما صدر عن لسان أهل البيت عليهم الصلاة والسلام. فهي تعتبر منشوراً متكاملًا وميثاقاً مهماً للحق والعدل والحرية عبر التاريخ، وقد ضمّنت الزهراء خطبتها الحكم المثلى ابتداءً من حكمة الخلق ومروراً بحكمة القيم الشرعية، وانتهاء بحكمة الوفود على الله تبارك وتعالى في يوم المحشر، فضلاً عن تبينها لفلسفة الرسالة ومقام الرسول والولاية لأهل البيت عليهم السلام، واتباع نهجهم المنبثق أساساً عن القرآن الكريم لا غير ..

ونحن إذ نفتخر بالانتماء إلى مذهب آل البيت، لا بد لنا من التعرف على أن هذا المذهب يعرج بجناحين -وهي الفكرة التي تمثل الروح في خطبة السيدة الزهراء- فالجناح الأول فيه العلم والحكمة والقيم المثلى والعقلانية والفهم الصحيح والمنطقي للدين. والجناح الآخر فيه الحماسة والولاية والعواطف والتضحية ..

الجناح الأول يتمثل في كلمات الوحي وكلمات الرسول الأكرم وآل بيته الطيبين الطاهرين، بدءاً بعليّ أمير المؤمنين، وانتهاءً بالإمام الثاني عشر

المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف .

بينما الجناح الآخر يتمثل في الفهم والتعاطف والدفاع عن حقوقهم وعمّا بذلوه -آل البيت- للدين من الطاقات الجبّارة والدماء الزكية، حيث لم يدعوا طاقة في أنفسهم ولا شيئاً أو إمكانية لديهم إلا بذلوا في سبيل وجه الله الكريم .

وإذا كانت الزهراء قد خطبت خطبتها المعروفة بالخطبة الفدكية في أجواء من الظلم واغتصاب الحقوق وانتهاك المحرمات والكرامات والمنازل المخصوصة لآل البيت ولها سلام الله عليها ولزوجها عليه السلام بالذات، فإنها لم تنس- وحاشى لها- أن تبين للأمة المنقلبة على عقبها ضرورة فهم الدين بالصورة الصحيحة، وضرورة العودة إلى جادة الحق التي اختطها الله في قرآنه الكريم وعلى لسان نبيّه المصطفى صلى الله عليه وآله .

إن؛ فالإكتفاء بواحد من الجناحين لا يعدّ تمسكاً بمذهب أهل البيت، وإنما المفروض فهم أسسه بالعقل والتفاعل معه عاطفياً. وإذا رأيت من يعلن التمسك بأهل البيت متخلفاً مستضعفاً، فاعلم أن ثمّ خلاً في أدعائه هذا، قد يكون في شكل وطريقة اتباعه لحكمتهم وفي طريقة التعبير عن التعاطف معهم .

ونحن إذا أردنا التمسك بكلا الجانبيين فأمامنا خطبة السيدة الزهراء التي بيّنت فيها الأوامر والنواهي، كما حددت فيها معالم العدل والظلم إلى يوم القيامة، ولو أن مؤلفاً أو مفسراً دون عشر مجلدات في تفسير هذه الخطبة العصماء وبيان أبعادها وأفاقها ، ما بلغ حق هذه الخطبة، وهكذا الأمر بالنسبة لخطب وأحاديث أهل البيت الأخرى، إذ هي صادرة عن أناس يستلهمون من الله مباشرة من دون معلم، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

وإليك خطبة الزهراء عليها السلام، بنصها الكامل، حيث قالت عليها السلام:

الحمد لله على ما أنعم، وله الشكرُ على ما ألهم، والثناء بما قَدَّم، من عموم نعمٍ ابتدأها، وسبوغ آلاءِ أسداها، وتمازج من والاهَا، جمَّ عن الاحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوتت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لا اتصالها، واستحمد إلى الخلائق باجزالها، وتثنى بالندب إلى أمثالها .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضَمَّن القلوب موصولها، وأثار في الفكر معقولها. الممتع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كلفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء امثلة امتثلها، كوَّنْها بقدرته، وذراها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلا تشبيهاً لحكمته، وتنبهها على طاعته، وإظهاراً لقدرته، وتعبداً لبريئته، وإعزازاً لدعوته. ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، زيادةً لعباده عن نعمته، وحياسةً منه إلى جنته .

وأشهد أن أبي محمد عبده ورسوله اختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسماه قبل أن اجتبله، واصطفاه قبل أن ابتهغه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علماً من الله تعالى بمآيل الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بمواقع المقدر ابتهغه الله إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير حتمه، فرأى الأمم فرقا في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرةً لله مع عرفانها، فأثار الله بمحمد صلى الله عليه وآله ظلمها، وكشف عن القلوب بُهْمها، وجلى عن الأبصار غُمَمها، وقام في الناس بالهداية، وانقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الطريق المستقيم، ثم قبضه الله إليه قبض راقيةً واختيار ورغبةً وإيثار، محمد عن تعب هذه الدار في راحة، قد حُفَّ بالملائكة الأبرار ورضوان الربِّ العفار ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على أبي نبيه وأمينه على الوحي وصفيِّه وخيرته من الخلق ورضيِّه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

وقالت مخاطبة الأنصار والمهاجرين: أنتم عباد الله تُصنَّب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناءُ الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، وزعمتم حقاً لكم، لله فيكم عهد قَدَّمه إليكم، وبقيةً استخلفها عليكم، كتابُ الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع والضياء اللامع، بيِّنةً بصائرهم، منكشفةً سررائره، متجليَّةً ظواهره، مغتبطٌ به أشياعه، قانداً إلى الرضوان أتباعه، مؤدِّ إلى النجاة إسماعه، به تُنال حجج الله المنورة وعزائم المفسرة ومحارمه المخدرة وبيئاته الجالية وبراهينه الكافية وفضائله المندوبة ورخصه الموهوبة وشرائعه المكتوبة .

فجعل الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس ونماءً في الرزق والصيام تشبيهاً للإخلاص، والحجَّ تشديداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزاً للإسلام، والصبر معونة على استيعاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، وبرِّ الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام مناة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، والمكائيل والموازن تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعة، وحرَم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية، فائقوا الله حقَّ تقاته، ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنه إنما يخشى الله من عباده العلماء .

ثم قالت: أيها الناس! اعلّموا أني فاطمة، وأبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أقول عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تعرّوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نساءكم، وأخ ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزّي إليه صلى الله عليه وآله وسلم، فبلغ الرسالة صادعاً بالندارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً بئجهم، آخذاً بإكظامهم، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسر الأصنام وينكب الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر، حتى تفرَّ الليل عن صبحه، وأسفر الحقُّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شفاشق الشياطين، وطاح وشيظ النفاق، وانحلت عُقد الكفر والشقاق، وفهتَم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص، وكنتم على شفا حفرة من النار، مُدقة الشارب، وئهة الطامع، وثبسة العجلان، وموطاً الأقدام، تشربون الطرُق، وتقتاتون الورق، أدلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنتذكم الله تبارك وتعالى بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ بعد اللتيا والتي، وبعد أن مُني بئهم الرجال وذوبان العرب ومردة أهل الكتاب، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله، أو نجَم قرناً للشيطان، وفغرث فاعرةً من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفي حتى يطا صماخها بأخصمه، ويُجمد لها بسيفه، مكودداً في ذات الله؛ مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله، سيد أولياء الله؛ مشمراً ناصحاً مجدداً كادحاً، وأنتم في بلهنيّة من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر، وتتوگفون الأخبار، وتتكصون عند النزال، وتفرّون عند القتال .

فلما اختار الله لنبيّه دار أنبيائه ومأوى أصفياه، ظهر فيكم حسيكة النفاق، وسمل جلاباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ حامل الأقلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللعزة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إيلكم، وأوردتم غير مشربكم، وهذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لماً يندمل، والرسول لما يقبر، ابتذاراً زعمتم خوف الفتنة، ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين. فهيهات منكم، وكيف بكم، وأنى تؤفكون؛ وكتاب الله بين أظهركم، أموره زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجه لائحة، وأوامره واضحة، قد خلقتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟ بئس الظالمين بدلاً، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرثها ويسلس قيادها، ثم اخذتم تورون وقدتها وتهيجون جمرتها وتستجيبون هتاف الشيطان الغوي وإطفاء نور الدين الجلي، وإهماد سنن النبي الصفي، تُسرون حسواً في ارتغاء، وتمشون لأهله وولده في الخمر والضراء، ونصبر منكم على مثل حرّ المدى ووخز السنان في الحشا، وأنتم تزعمون أن لا إربث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون أفلا تعلمون؟ بلى تجلّى لكم كالشمس الضاحية .

إني ابنته أيها المسلمون، ء أغلب على آرتيه .

يا ابن أبي حفافة ! أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جنت شيئاً فرياً، أعلى عمد تركتم كتاب الله ونبدتموه وراء ظهوركم إذ يقول: وورث سليمان داود، وقال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا: إذ قال رب هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب، وقال: وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، وقال: يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين، وقال: إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين؟ وزعمتم أن لا حظوة لي ولا أرث من أبي ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بأية أخرج منها أبي؟ أم هل تقولون أهل ملتين لا يتوارثان، ولست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ فدونها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعود القيامة، وعند الساعة ما يخسرون، ولا ينفعم إذ تندمون، ولكلّ نأ مستقر، وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه، ويحلّ عليه عذاب مقيم .

ثم اتجهت بنظرها إلى الأنصار وقالت عليها السلام :

يا معشر الفتية واعضاد الملّة وأنصار الإسلام ! ما هذه الغمزة في حقي، والسنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبي يقول: المرء يحفظ في ولده؟ سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما أحاول وقوة على ما أطلب وازاول، اتقولون: مات محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟ فخطب جليل استوسع وهنه، واستنهز فقهه، وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، وكسفت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأزيل الحريم، وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة ولا بانقة عاجلة، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه في أفنيتم وفي مأساكم ومصبحكم، هتافاً وصراخاً وتلاوة وإحافاً، ولقبه ما حلّ بأنبياء الله ورسله، حكم فصل وقضاء حنم، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين .

أيها بني قيلة! أهضم تراث أبي وأنتم بمرأى مني ومسمع ومبتدئ ومجمع، تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذور العدد والعدة والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجنّة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنجبة التي انجبت، والخيرة التي اختيرت، قاتلتكم العرب وتحملتكم الكد والتعب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم، فلا نبرح أو تبرحون نامركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام ودرّ حلب الأيام وخضعت نعة الشرك وسكنت فوزه الإفك وخدمت نيران الكفر وهدأت دعوة الهرج واستوثق نظام الدين، فأنى حرّتم بعد البيان واسرّتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام وأشركتم بعد الإيمان، ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدوكم أول مرة، اتخشونهم؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين، ألا قد أرى أن اخلدتم إلى الخفض وأبعدتم من هو أحق باليسر والقبض، وخلوتم بالدعة، ونجوت من الضيق بالسعة، فمجتّم ما وعيتم، ودستم الذي تسوّغتم، فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً؛ فإن الله لغني حميد، ألا وقد قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم، والغدر التي استشرعتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس ونفثة الغيظ وخور القنا وبثة الصدر وتقدمة الحجة .

فدونكموها ، فاحتقبوها دبيرة الظهر ، نقيبة الخف ، باقية العار ، موسومة بغضب الله ، وشنار الأبد ، موصولة بنار الله الموقدة؛ التي تطلع على الأفئدة، فيعين الله ما تفعلون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب أليم ، فاعملوا إنا عاملون، وانتظروا إننا منتظرون .

ثم أنها أخذت في دحض مغالطات الخليفة الأول واستدلته بما كان ينسبه من أباطيل تخالف كتاب الله للنبي صلى الله عليه وآله، وذلك على مرأى ومسمع من الصحابة، ولكن قليلاً من الناس ما يعقلون، إذ أن أدلة الزهراء في بطلان الطرف الآخر لم تكن لتعدو آيات القرآن الكريم وما شاهده الناس من فضل وكرامة لأهل البيت عليهم السلام، فما يدلل على صدقهم وحقهم فيما أدعوا به، كالولاية على الناس وحقهم في فدك، إلا أن الارتداد عن الحق والخوف من التنكيل واللامبالاة والحقد القديم والطمع ، كان كل ذلك قد أخذ مأخذه من طبيعة تفكير وقرار المسلمين بعدم نصره أهل البيت وطعن الرسالة المحمدية في الصميم .

وليس ذلك بمستغرب إذا ما طالع الإنسان المنصف طبيعة تعامل الكثير ممن يدعي صحبة الرسول صلى الله عليه وآله، وعله، تعاملًا تحوطه الشكوك وعدم الاحترام لشخص النبي، فضلاً عن أهل بيته ، فكيف بهم إذا ما استراحوا من شخصه وعادوا إلى الجاهلية ونزعوا عنهم لباس النفاق

وهذه الحقيقة تبدو واضحة غاية الوضوح في قصة حمل أمير المؤمنين عليه السلام في المبايعات القسرية لأبي بكر، رغم أن أعداء الإمام عليه السلام قد اطمأنوا إلى قلة عدد مؤيديه، ورغم علمهم أيضاً بأن علياً عليه السلام لن يستخدم الطرق الملتوية للوصول إلى السلطة، وأنه لا يهتم لها أي اهتمام ..

ولذلك فإن قصة اقتحام بيت الزهراء عليها السلام وأسلوب العنف الوحشي الذي انتهى بكسر ضلعها وإسقاط جنينها وضغطها خلف باب الدار بعد إحراقه بتلك الصلافة المعهودة عن أعداء الدين والمنافقين، تلك القصة لا تعبر إلا عن مستوى الكفر والوحشية التي كان أعداء الزهراء يبطنونها لها ولأهل بيته ، بالإضافة إلى أن من شأن طبيعة الاعتداءات تلك أن تسري إلى من يليهم من الحكام ، ليمارسوا وفقها أنواع القتل والتعذيب والتشريد والظلم بحق أولاد وذرية النبي وآل بيته، وبحق من والأهم من شيعتهم ومحبيهم .

فلا غرابة في ممارسات الطغاة عبر التاريخ، الذين لا يتقاعسون لحظة واحدة عن توجيه الضربات المستميتة لدحض الإسلام، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، فهذا خط النبي والزهراء وخط الأئمة الطاهرين وأتباعهم وشيعتهم يقف بالمرصاد لكل من يسعى إلى إطفاء شعلة الإسلام ، والعاقبة للمتقين .

---

[1] من فقه الزهراء عليها السلام عن امالي الطوسي، ج2، ص280 .

[2] الارشاد للشيخ المفيد، ص232، ط بيروت .

[3] تفسير اطيبي البيان، ج13، ص225 .

[4] كشف الغمة، ج1، ص506 .

[5] علي بن احمد المالكي الشهير بابن الصباغ، الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام، ص146 .

[6] الشيخ إبراهيم بن محمد الجويني، فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمة من ذريتهم عليهم السلام، ج2، ص66 .

[7] الشيخ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص30 .

[8] الشيخ إبراهيم بن محمد الجويني، فرائد السمطين، ج2، ص68 .

[9] الشيخ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص36 .

- [10] الشيخ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار ج43، ص37 .
- [11] الشيخ إبراهيم بن محمد الجويني، فرائد السمطين، ج2، ص58 .
- [12] الشيخ إبراهيم بن محمد الجويني ، فرائد السمطين، ج2، ص67
- [13] الشيخ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار ج43، ص134
- [14] ذخائر العقبى للطبري، ص41، الحافظ محب الدين احمد بن عبد الله الطبري .
- [15] المصدر السابق، ص 44 .
- [16] فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى، عن المناقب ، ج3، ص357 .
- [17] بحار الانوار ج43 ص291، ح54 .
- [18] كشف اللآلي وملتقى البحرين ، ص14 .
- [19] بحار الانوار ، ج43، ص81، رواية 3 .
- [20] بحار الانوار، ج43، ص15 .
- [21] بحار الانوار، ج8، ص52 .
- [22] العالم الذي كتب فيه الزهراء آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي .
- [23] بحار الأنوار، ج43، ص 81 .
- [24] بحار الانوار، ج81، ص234 .
- [25] بحار الأنوار، ج8، ص112 .
- [26] بحار الانوار، ج28 ، ص58 باب اخبار الله تعالى نبيه واخبار النبي امته .
- [27] ميزان الحكمة، مجلد 10، ص700 .
- [28] فرائد السمطين، ج2، ص68 .
- [29] بحار الأنوار، ج28، ص38 .
- [30] بحار الأنوار، ج53، ص179-180 .
- [31] فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى عن حلية الأولياء، ج2، ص41 .
- [32] ميزان الحكمة، ج5، ص129 .
- [33] بحار الانوار ، ج16، ص115 .
- [34] بحار الأنوار، ج2، ص261 .

[35] ميزان الحكمة، ج10، ص712

[36] فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى عن المناقب، ج3، ص357 .

[37] فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى عن فرائد السمطين، ج2، ص46 .

[38] مفاتيح الجنان للشيخ القمي .

[39] المصدر

[40] بحار الأنوار، ج8، ص112 .

[41] فرائد السمطين، ج2، ص46 .